



تصدير ... والكلمة أبقى !

هل

كتب على هذا
«التصدير» أن يكون
نشازا عما سبقه من «تصدير»
وهو يحمل رقم الخامس
والتسعين ؟! سبحان الله ! هل
لمثل هذه الأشياء مختلف
الحلوظ كذلك البقاء لله . والله
أكبر !!! لقد فجع نادي القصة

بفقد علم من أعلامه على حين غفلة من الزمن ، وعلى بعد من
المسافة .. فقدنا عبد الله القويري وهو في عمر يؤمل
واصله العطاء . وما كنا نحسب أن انهيار العلة عنه كان
شأن الأقدار حين تضحك من تقدير البشر ، أو من غفلتهم
على الأصح .

كان عبد الله القويري بالنسبة لنادي القصة وأعضائه
ذلك العملاق المتحدّي، وذلك الجبار الساخر، والمبدع الثرّ..
كان كذلك فيما سطره قلمه، ولفظه لسانه... كان كذلك حتى
في ابتسامته وسهومه، وفي صمته ووجومه. ولم تكن
مغفلين إلى درجة أنه يتحدى العدم الذي كان البداية ، أو
يصرع الغناء الذي هو خاتمة وجود محتوم ؛ لأننا كنا نقدر
أن الجانب الآخر من عبد الله القويري هو الذي سيواصل

السيرورة. ويتحدّى الزمن بأعاصيره وعصوره ، لأنه «كلمة». والكلمة خلود. ولأنه «نبضة» والنبضة لا تنقسم فلا تفنى. كان ذلك منا ونحن نهتز للنبا الفاجع. وكانت المجلة (مجلة قصص) قد تم إنجاز عددها ما عدا مكان هذا التصدير الممكن التغلب عليه في انتظار ما يمكن أن يقال عنه في عدد قادم من هذه المجلة التي لقيت منه جود العطاء ، والضم في رحاب صموده ومثابرتة.

إننا لا نعزي فيه أدباء تونس وليبيا فقط بل في الوطن العربي كله. وإنه حدث تتساوى فيه أقطار هذا الوطن الممتد في معرفة ابنائه ولو بعد أن يصبحوا في عالم الذكر، واستحضار الذكرى.

رحم الله عبد الله القويري. وإنا لله وإنا إليه راجعون.

محمد العروسي المطوي <http://Archivebeta.Sakhrit.com>

بنت البحر
حفيظة قارة بيبان

البحر البعيد مزمجرا،
وقطرات المطر تنقر
النافذة، والنوارس
ترتفع من ناحية الشاطئ تفتح
أجنحتها في وجه الريح الماطرة،
وتعلو في رماد السماء الخضل.

يأتيني

هاهي تمطر.. تمطر..
والشجرة الوحيدة في الشارع
المقابل تمدُّ فروعها العملاقة

الحريق

للسماء، وتعود تتحني مقهورة للأرض.

توقف قلم الكاتب، مسقط من يده، وقد انقاد يهزه السعال.
أمسك رأسه بيديه. بدأ صدره يضيق والهواء يشح. والداء
المزمن اللعين يسجنه في زناناته الخائفة. امتدت يده فوق
المكتب تسحب الدواء إليه. ابتلع قرصاً، ورفع رأسه ينشد
بعض الهواء. ألقى علبة الدواء إلى يمينه. وقعت على طرف
المكتب تحت النافذة. قابله حذوها ملف وردي لم يفتح منذ
أيام طويلة يستسلم لمشهد الشتاء القادم. امتد الوجع أكثر
يشق صدره.

وأحسَّ البرد يتسرَّب من الشقوق يجمد رجليه وأطراف
أصابعه وتلاحقت أنفاسه قصيرة لاهثة وأزمة الربو تكاد
تعلن عصفها به. ابتلع قرصاً ثانياً. ورمى العلبة جانبا. ألقى
برأسه المتعب إلى ظهر الكرسي هاربا من مكتبه إلى مشهد
الريح والمطر.

أخذته الريح إلى ذلك اليوم في دروب العاضمة. كانت
الريح باردة، مصقعة. وكانت الشمس باذية في سماء
ديسمبر، ولكن دون حرارة. وكانت العاصفة تغلي وسط
الريح الخائق والغبار.

تذكر أنك كنت ملتفًا في معطف صوفي ثقيل، وحول
عنقك شال من الصوف الأحمر الداكن، وبيدك مطرية سوداء.
ابتسم الناشر مرحبا وهو يراك تدخل عليه، والتمعت عيناه
ببريق سخريّة وهو يبادرك قائلا:

- أهلا ! أهلا !.. لقد أتيتنا بكل برد الشمال

فكيف إذن لو لم تكن قادما من البحر /!

ابتلعت الدعابة رغما عنك. وقبل أن تتكلم ، رفع
الناشر حاجبيه وقال في انبهار :
- رائع بحركم !

وابتعد بك في دروب لا تريدها. فمضيت صابرا في
انتظار العودة.

حين دخلت مكتبه، كان يكمل الحديث مع كاتب آخر
يستعد للخروج. كان يجلس وخلفه في مستوى رأسه تآمما،
على الجدار المغلف بالخشب المزخرف للاماع، لاحظت شهادة
كبيرة معلقة في إطار من ذهب. تأملت الشهادة. بدت كلماتها
كبيرة سوداء منمقة قرأت :

وسام وزارة الثقافة
للسيد حامد بوسالم

بدا ارتياح على وجهك المنتظر. هذا وسام تقدير. لقد
وضعت مخطوطك في يد حازمة قديرة.

وقف السيد حامد يودع الرجل، وعيناه تلمعان وتبرقان
بريقا مشحونا حين تلتقيان بعينيك القلقتين. بدا طويلا

عريض المنكبين، مهيبا خلف مكتبه الفخم، وضوء المصباح في السقف المزركش يقترب من رأسه.

ازداد حرجك وهو يجلس ، ويقرب المخطوط، يمسكه بين يديه، ينظر إليك بطرف عينه ويبتسم بصمت.

لقد قررت ألا تبدأ بالكلام، وأن تنتظر ، أن تعرف انطباع الناشر أولا، لتقرر كيفية المواجهة.

قد لا يرضيه الكتاب، قد يرفضه بدعوى أنه لا ينتمي إلى نمط معين من أنماط الكتابة، أو بدعوى أنه من النوع غير المطلوب، أو.. أو.. وقتها ستعرف كيف ترد عليه، ستأخذ كتابك غاضبا وستمضي إلى ناشر آخر.

شاهدت شفتي السيد حامد تنفرجان، تعلقت بهما تحركتا لتصل إلى سمعك كلمة منغمة :
- رائع !

سمعت كلمة « رائع » أجل رائع ؟
لا شك أن الناشر يريد أن يبدأ بالمقارنة بين كتاب رائع قرأه وبين مخطوطك، لم تتوقع أن يبدأ بهذه الطريقة.

مد السيد حامد يديه الاثنتين وأخذ الملف الوردي الذي وضع فيه مخطوطك وأعاد :

- رائع ! إن هذا الكتاب رائع حقا !

لم تصدق أذنك - لم تقل كلمة حتى تتأكد من موقف الناشر، لمح السيد حامد أن عينيك انفتحتا وأن المفاجأة ترسم على وجهك، فاستدرك يقول :

- أكاد أقول إنه كامل : لقد أعجبني خروجه عن السائد. تأخذك كلماته إلى عوالم جديدة ، الكلمة فيه لها وهج خاص، وطرق الموضوع فيه تجديد لا أرى أحدا سبق إليه.. ولكن فيه جراءة أيضا جراءة خطيرة أحيانا.

وقتها بدأت الشمس ساطعة في الخارج، وإشعتها

ترقص في زرقاء السماء كاسرة بقايا الغيوم. ولم تهتم
بجملته الأخيرة، فقد كنت تحاول أن تكتم فرحة خانقة تشق
صدرك وتطير مرفرفة على رؤوس الجميع. فقد كان إعجاب
الناشر لا يخفى رغم « لكن » الأخيرة. وكان المخطوط على
المكتب يتحرق في لونه الوردي، ويشتعل شوقاً إلى الخروج
من هناك إلى حرارة أيدي العمال في المطبعة حيث يبدأ
هدير الحياة فيحيي بينهم وينتعش من جديد. أحسست أنك
تطير في الفضاء والشمس مشرقة رائعة والسماء ربيعية
ساحرة. وأنت فرحة طافحة تسبح فوق غيمة وردية.

وقررت أن تقبل كل شروطه على أن ترتاح من عبء
مخطوطك في أقرب وقت. أجل ! ستقبل كل شروطه.. تأخير
النشر... الحقوق الهزيلة المخجلة... ولكن المهم، أن تنتشر
طليقة كلماتك في الأرجاء فما زالت تذكر يوم زرته أول مرة
قال لك :

- في حال قبول الكتاب، لا يمكن نشره هذه السنة ولا
السنة القادمة ! بل بعد أن تكتمل مداخل الكتب المنشورة
سابقاً. ولا يخفاك أن استرجاع مصاريف كتاب يحتاج إلى
سنوات إضافة إلى غلاء الورق وانعدام القراء.. وأزماتنا
الأخرى المعتادة. وأردف :

- أما حقوق المؤلف فهي عشرة بالمائة من مداخل
الكتاب بعد سنة من صدور الكتاب، يأخذ حقوقه عن النسخ
التي بيعت. وهكذا يتسلم بقية حقوقه آخر كل عام.

وقتها نظرت إلى حذائك المتآكل وأطراف معطفك
القديم، وسعلت، فاحتد ألم في صدرك، وذكرت الليالي
الطويلة الباردة والاف الكؤوس المحرقة وفناجين القهوة
المركزة التي شربتها، والكتب التي استقبلت الفجر وإياها،
وعذابات المرض التي قاومتها.

مازلت تذكر خيبتك يومها، والمرارة التي عدت بها
وأنت تستمع إلى الحكاية التي يردها كل ناشر ببلادك، فعلى

كل مخطوط أن يدفع الضريبة، ويدخل ثلاثة الموتى ويقبر سنوات قد لا يعود بعدها للحياة.

ولكن، هذه المرة ، الأمر مختلف فإعجاب الناشر واضح، والنشر القريب مؤكد، فالمعروف عنه أنه يعرف استغلال الفرص.

وبدت الابتسامة تنير وجهك وكلمات الامتحان ترقص على شفطيك للفرحة القادمة.

دفعت الريح النافذة بعنف. صفع الهواء البارد والمطر الكاتب. هب واقفا. أغلق النافذة بيد وحاول باليد الأخرى حماية صدره المريض من الصقيع الهاجم. عاد يجلس إلى مكتبه وقد بلله القطر. أسلم رأسه ليديه، وقد تاهت عيناه بعيدا.

كانت الابتسامة قد اختفت من وجه الناشر، وعاد يبدو جادا صارما.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhr.com>

- ولكن، للأسف، لا يمكنني نشره !

- على الأقل على صورته الحالية.

- لكن رأيك الآن ...!

- رأيي لم يتغير. ولكن هذا الكتاب من النوع الذي يقرأ مخطوطا. قد تتخاطفه الأيدي وتتمتع به النفوس، ولكن... المطبعة لن تقبله ! هل تفهمني ؟

- أسف ! لست قادرا على الفهم !

- إنك تحمل البارود! وتعلن عن أفكارك ضد كل الأقوياء!

وابتسمت ساخرا، ولكنه واصل :

- إذا لم تحذف أو تعدل العديد من الأفكار التي يمكن أن نناقشها معا. فنشره يعني بداية الحرب.

- أية حرب ؟ إنه كتاب أدبي !

- ولكن التورية فيه واضحة والسخرية لاذعة، حارقة !
- من شاء الحرب، فأنا جاهز لها.
- ... ولكنني غير موافق.

ختم الناشر الحديث قائلا :

- على كل، يمكنك التفكير بالأمر، رغم أنني أسف حقا، ولكن الأمر الآن بيدك.

حين وقفت، كانت جدران المكتب، بكتبها وملفاتنا المغربية وعنكبوتها وشهادة وزارة الثقافة تقترب منك.. تقترب.. تقترب.. وتسحقك بينها.

مدّ الكاتب يده إلى التارموس صب في فنجانه القهوة المركزة الساخنة تعالى بخار، أخذ سيجارا، أشعله رغم تحذير الطبيب بدأ يدخن وينفث الدخان بحنق ظاهر في فضاء الغرفة الضيقة.

الأيام تمر، والعمر يمضي، وأنت تواصل تسكعك، وتواصل طرقتك للأبواب المشيعة، تصل المكاتب لاهثا، أنفاسك متقطعة كعجوز طاعن رغم الشباب الباندي عليك، هواء بلادك الملوث، الخائق في كل الفصول، ينهك أكثر صدرك المتعب المريض، وتعود كما أتيت، أقوالهم تتشابه، وإن اختلفت تقييماتهم، فالنتيجة واحدة.

- غير ممكن... عليك، بحذف النصف.. يجب تعديل الأفكار.. إنك تفتح بوابة السجن.

ظل الكاتب يدخن، يرسم خطوطا سوداء متداخلة متقاطعة، وكلمات قليلة على الورق الأبيض أمامه.

« ها هو نورس يسقط، الموج يرتفع مزبدا مظلما والمساء يقترب.. البرد يشتد والموقد غائب ».

الملف الوردي يرقد صقيعا على المكتب. رفضت تقطيع أوصاله. وتركته مشوها لفئران مكاتب الناشرين، رميت

القلم، أخذت علبة السجائر من جديد. أشعلت ثقاباً قربته من وجهك، سرعان ما بدأ لهبه يتلوى أمام أنفاسك الحانقة. ها أنت تبحث كعادتك، وحيداً، عن الجنون والدهشة.. النار تتراقص بين أصابعك، والمخطوط المصقع يرتعش برذا معك يقضي ضريبة جنونك وخروجك عن المعتاد. وأمراضك المزمنة المتزاحمة على جسدك لن تتركك تعيش السنين الطوال حتى تولد أفكار جديدة ويبعث لك أمل جديد يطلق كلماتك من سجنها. والهواء الملوث ببلادك يعفن أكثر رئتيك يخنقك، ويغفل بقتلك.

فتحت الملف، واجهك العنوان. قربته من العود المشتعل، اشتعلت الورقة وتشتت بين أسنان اللهب الصاعد. وتلوت النار راقصة فوق المنفضة على مكتبك. وانتشرت حرارة ثائرة.

وبينما كانت كلمات كتابك المنتظر تتصاعد بين الدخان، حارقة سوداء، تطير إلى الأفاق، كان الدخان يمتد إلى رئتيك. بدأت تسعل.. وتسعل.. ضاقت أنفاسك. تقلصت قدرتك على التنفس.. بدأت تختنق <http://Arch> - رثاك، رثا عجز رغم شبابك.

هكذا قال الطبيب.

... سيقترك الربو.. وتستريح... والهواء الملوث في بلادك.

استنجدت بالدواء. سبقتك النار. مرت أياديها تلتهم علبة الدواء، وبقايا الهواء.

ومن بعيد، شاهدت السماء السنة النار تصاعد من النوافذ، تصارع عصف المطر.

ولم يشاهد أحد شيئاً، فقد كانت كل البلاد منهكة نائمة بعد ليلة صاخبة احتفلت فيها بعيد الثقافة.

حفيظة قاره بيبان

ولدا
في زمن متقارب،
وتربيا وترعرعا في
بيت واحد.

كانا لا يفترقان أبدا. يلعبان
سويا، يردان الماء ويرعيان
الخراف والجداء معا أو رفقة
بعض أبناء الجيران أحيانا. لما
بلغا مرحلة الشباب باعد الأهل
بينهما تمشيًا مع سنة الحياة

الحزاء والقربان

والتقاليد السائدة.

لقد بلغت ريم مبلغ النضاء وكذلك عبد الصادق صار
رجلا هو الآخر ولا يصح أن تستمر العلاقة بينهما على
النسق القديم. لقد كانا طفلين فيما مضى لا يعيان من أمور
الدنيا وأسرار الجسد شيئا، أما الآن فالامر مختلف.

كانت ريم تنمو وتتفتح ويتعاطف حسننها ويتضوع
أريجها في الافاق يوما بعد يوم كزهرة بريّة نادرة كريمة
الأصل والمنبت سرعان ما لفتت الأنظار إليها، واستقطبت
اهتمام فتيان القرية جميعا دون استثناء لكن أحدا منهم ما
كان ليجرؤ على الاقتراب منها أو مخاطبتها أو حتى مجرد
التفكير فيها رغم رغبة الجميع في التودّد إليها والتعرّف
عليها. ومن الذي يجرؤ على ذلك وهو يعلم أن ابن عمها قائم
بينهم وهو غير متزوج فهي له وهو لها وتلك هي شريعة
البادية !.

لكن والد ريم لم يحترم تلك القاعدة وتجاهلها بإعلانه على ملا من رجال القرية ذات يوم أنه لا يمانع في تزويج ابنته من خارج القبيلة أو القرية ومعلوم أن عبد الصادق يتيم الأب والأم احتضنه عمه والد ريم وتكفل بتربيته والانفاق عليه منذ طفولته.

كان لإعلان والد ريم ذاك وتأكيد عدم ارتباط ابنته بابن عمها وقع الصاعقة على الشابين المتحابين. صحيح أن عبد الصادق فقير ويتيم لكن العرف يمنحه الأولوية في الزواج من ابنة عمه رغم ذلك.

شعر الفتى بفداحة الطعنة الموجهة إليه وعزم على ترك بيت عمه والاستقلال بنفسه. إنه ليس معدما على أية حال فله بعض الرقاع في الأرض هنا وهناك، و عدد من الإبل والشاة. وقد أن الأوان ليعتمد على نفسه ويثبت لعمه ولأهل القبيلة جميعا بأنه ليس أقل من أمثاله من فتيان القبيلة اقتدارا ومهارة ورجولة، وأنه بإمكانه أن يبرز صفوتهم وأن يتفوق عليهم في أكثر من ميدان.

عارض عمه بشدة انفصاله عنهم. وكذلك فعلت امرأته لكن عبد الصادق تمسك بموقفه لا يحيد عنه.

ذهب إلى خالته - وهي أرملة عجوز تعيش وحيدة غير بعيد - ودعاها إلى الإقامة معه، رحبت بطلبه، وجمعت ما لديها من متاع قليل ومضت معه.

ولم تمر غير شهور قليلة حتى تقدم لخطبة ريم فتى وسيم عريق النسب من أسرة عرفت بالثراء كاهرا عن كاهر هو معتوق ولد غنوم.

ابتهج والد ريم بتلك الخطبة واعتبرها شرفا وكسبا عظيما له ولأسرته ولعشيرته.

ومع إطلالة صيف ذلك العام بدأت مراسم الفرح.

كانت ريم حزينه لا يكاد يرقى لها جفن، أما عبد الصادق فقد هزه الحدث من الأعماق لكنه تمالك نفسه وأبدى تسامحا نبيلاً أكبره فيه الجميع.

ويحل موعد الزفاف، ويقبل عبد الصادق أن تلقى على كاهله أعباء الفرح كبيرها وصغيرها دون أن يشتكي أو يتذمر. ريم ابنة عمه لا أخ لها، والدها قد تقدمت به السن وصحته لم تعد على ما يرام فهل يتخلّى عنها في أهم أيام عمرها ؟

سار كل شيء على ما يرام، وفي أبهى وأكمل صورة، لكن ليلة الدخلة حدث ما عكّر صفو أهل العروسين وأخذ الفرحه في قلوبهم، لقد انتظروا مع الناس حتى ساعة متأخرة من الليل أن يخرج اليهم ثوب العروس الحامل لدليل عذريتها وطهارتها لكن دون جدوى.

وبدا الهمس بين الحاضرين :

الفتى معمول له عمل، لقد ربطه بعض أبناء الحرام...
الله يهلك أصحاب الشر.

<http://Archivebeta.Sakr.net>

وتكرر دخول شقيق العريس ووزيره عليه.

وطال بالناس الانتظار، واستحوذ عليهم اليأس من حصول المطلوب - في تلك الليلة على الأقل - أخذوا قتي العودة الى ديارهم وقد انشغل منهم الفكر والقلب واللسان بذلك الحدث الذي لم يسبق للقرية أن شهدت له مثيلاً من قبل. وعاد والد العريس فيمن عادوا يجرّ قدميه جرّاً محنتي الظهر كأنه يحمل أوزار الدنيا على كتفيه إلى جانب بارودته التي كتب عليها ان تظل صامته خرساء في تلك الليلة المشؤومة وآلاً يلعلع صوتها الحامل للبشرى والنبا السعيد في فضاء القرية كما كان منتظرا.

لم يغمض لاهل العروسين جفن ذلك المساء. وأقبل الصباح كنيّاباً بانساً متجهماً. لم يعمل فيه شيء حتما اعتاد

الناس عمله في مثل ذلك اليوم.

ويمر النهار ثقيلًا قاتمًا، ويحل الليل بسواده ووحشته. ويأتي بعض الأهل والأقارب والأجوار من النسوة والرجال، يحدوهم الأمل في أن يتحقق المرتجى، لكن دون طائل.

ومرت ليلة الثالثة ورابعة.. وسادسة، وأصبح الأمر مأسويًا مؤلمًا. وأقلع القوم عن الحضور.

ومرض رب الأسرة ولازم الفراش، واختفى العريس ولم يعد يظهر له أثر كان يحضر إلى الحي متسللاً وسط الليل كأمهر اللصوص وأشدهم حذراً، ويغادره في الهزيع الأخير، ويقضي نهاره مختفياً عن العيون بهذا الشعب أو ذاك.

وتسعى أمه إلى كل فقيه وعزاف سمعت به مستنجدة به في تخليص ابنها مما أصابه وإنقاذ شرف الأسرة وسمعتها

كانت كل ليلة تنتظر عودة ابنها لتعطيه تيممة يعلقها أو لتقدم إليه ماء يشربه أو يغسل به احتوى على محلول كتاب يبطل السحر ويزيل العقدة. وبرغم فشل كل تلك الجهود فإنها لم تيأس ولم تتوقف عن المحاولة. وظلت تبحث هنا وهناك وقلوبها يتفطر حزناً ولوعة على ولدها الذي ضمير عوده واصفر لونه، وانطفأت بسمة الحياة في قلبه وكان من جانبها ينصاع لرغبتها بلا حماس وعن غير اقتناع.

إثر كل وصفة جديدة كان يحاول مع عروسه ولكن دون جدوى.

كانت ريم تتعذب معه وتشفق عليه ترثي لحاله وهي تراه يجهد نفسه عبثاً ويحاول المستحيل وبرغم يقينها من عدم جدوى تلك المحاولات فإنها لم تفكر مرة واحدة في صده أو في منع نفسها عنه. وأمام عجزه المتكرر قرر التوقف عن متابعة تلك المحاولات اليائسة إلى أن يقدر إليه أمراً كان مفعولاً.

لقد أصبحت تلك العملية تمثّل عنصر ايذاء وتعذيب وامتهان بالنسبة إليه ولعروسه كذلك، وما ذنبها المسكينة حتى يفرض عليها كل ليلة أن تعيش معه حرارة تلك التجربة المعروفة النتائح سلفا ؟!

ومر شهر .. ثلاثة... ستة أشهر، واقتنع الجميع آخر الأمر بضرورة التسليم والاعتراف بالأمر الواقع الذي لا يمكن انكاره وتجاهله إلى ما لا نهاية. لقد أصبح استمرار زواج معتوق وريم أمرا مستحيلا.

وكان يوم عودة ريم إلى أهلها يوما مشهودا سمع به الكبار والصغار وانشغلوا به أياما.

وتشتد العلة على والد الفتى، وسرعان ما يودّع الدنيا ويجد أهل الربع في وفاته فرصة جديدة لمتابعة الخوض في امر العروسين الشابين المطلقين.

وما ان تنقضي شهور العدة حتى يتقدم عبد الصادق طالبا يد ريم.

يرحب عمه بطلبه ويسرّ به، وبالنسبة يعتذر إليه عما فرط منه في حقه، لقد ظلمه وظلم ابنته معه.. إنه قضاء الله ولا راد لقضائه. ولا يعلم الغيب إلا هو.

كان عبد الصادق سعيدا غاية السعادة بعودة ريم إليه. أمّا هي فقد نسيت ألامها وأحزانها منذ اللحظة التي تقدم فيها لخطبتها ولم يعد يشغل فكرها أي شيء غير ترقب اللحظة السعيدة التي تجمعها بابن عمها وحبيبها رفيق طفولتها وصباها الذي نذرت نفسها بأن تكون له وحده فآكرمها الله ولم تخل بنذرهما ولم تحنث في وعدها. وكان فرحا فريدا لم تشهد القرية له مثيلا من قبل يليق بحبيبين باعدت الأيام بينهما في لحظة عابثة ملعونة. ثم تراجعت في ساعة غير متوقعة وعادت لتجمع بينهما مرة أخرى بعد ان استفحل اليأس وانعدم الرجاء.

لقد أرادَه عبد الصادق وكذلك عمّه عرسا حقيقيا ينسي ريم مرارة التجربة التي خاضتها ويعيد اليها اعتبارها بين اترابها، عرس عذراء لا مطلّقة وتحلّ الليلة الحاسمة الفاصلة، ويهب جميع أهل القرية وبخاصة النساء لحضور موكب الدخلة ولم يطل بهم الانتظار هذه المرة. إذ ما لبث أن ارتفع فوق الرؤوس وعلى ضوء المصابيح ثوب العروس الأبيض وهو يحمل العلامة والدليل.

ويمتلئ فضاء القرية بأصداء الزغاريد وطلقات البارود. وبتدافع الرجال والنساء لتهنئة والدي العروس بالحدث السعيد.

وتتجاوب هنا وهناك أصوات النسوة والفتيات العائدات إلى بيوتها تهدد عرائس الليل وتدغدغ سمع السكون بأرق الأهازيج وأعذب الأنغام. وتمر الساعات. ويهدأ كل شيء. وتغفو القرية سعيدة هانئة على أجمل الصور وأرق الألحان وعند السحر يشق جلال السكون طلق ناري يحدث في السمع وحشة، وفي النفس رهبة استيقظ على صداه العديد من أهالي القرية. وكلهم خيرة وتساؤل وفضول وأعقب ذلك، صراخ وعويل. وبدا واضحا أن الأصوات صادرة من جهة الشرق. وبالتحديد من الناحية التي يوجد بها بيت معتوق ولد غنوم زوج ريم السابق.

محمد الخموسي الحناشي

على

شاطئ الاسكندرية ، في
تلك الاحياء الشعبية
التي تزدهم بالناس.
وتموج بالحركة شاهدناها في
طفولتنا... امرأة فارعة الطول
براقة العينين. جهورية الصوت..
سريعة الخطوات.. كانت تطوف
الشوارع والأزقة.. على رأسها
قفة تتمايل بها. تemis مثل

ضاربة الوطع

حاملات الجرار. والبلاص على ثرعة الممودة.. وهي ريفية
بدوية.. هبطت المدينة تنادي بصوتها المجلجل ذي النغمة
واللهجة البدوية.. وقال العارفون بالأجناس والقبائل : إنها
من أولاد علي.

وكانت المدينة تتماوج بها اصوات الباعة في نداءات
ذات الأصوات الرخية الندية الطرية.. بجانب الأصوات
الصارخة المدوية.. وذات الطابع الفنى النغم. المعط.. وهناك
من الباعة المتجولة من ينادي على بضاعته شعرا.. أو زجلا
متغزلا في انواع بضاعته يجوب بها على عربته أو على كتفه
في جوالف أو قفة.. وتختلف ألوان النداءات واللهجات من
أقاصي الصعيد، أو من جوف الريف وابناء الشواطئ..
تتنوع حسب النداء واللهجة.. بل هناك باعة سريعة من
خارج البلاد تأقلمت على الشاطئ الإسكندري.

وكانت نغمتها تتميز من بين النداءات والأصوات
عندما يرتفع صوتها بين الشوارع والأزقة في نبرة مجلجلة..

«اشوف البخت. واخط الرمل. وأوشوش الودع !!!»
وتسكت قليلا.. كأنما تسترد أنفاسها. أو تستعد لأخذ نفس عميق.. ثم ينطلق الصوت وتعاود النداء لأثارة الانتباه الى وجودها بنغمة بدوية شجية لها طابع مميز في خضم الأصوات والنداءات «ادق واطهر ونبيّن زين!!!» والقاف لا تنطقها هجزة. أو كبينات المدينة أو مخففة، بل تلفظ بها قافا معمقة دالة على بدويتها وتكرر النداء :

« .. اشوف البخت، وأوشوش الودع وادق واطهر !!!»

وكلما شاهدناها مقبلة كنا نعاكسها ونقلدها نحن الصغار العفاريث.. واطلقنا عليها : « اشوف البخت» وكنا في مرحنا ومعاكساتنا نسمي كل بائع ومتجول باسم بضاعته ، أو نلقبه بمقطع من نداءه ..

فهناك بائع لنوع من الحلوى له جرس يرن به ثم تنطلق عبارته منغمة مطّعة «الصبر جميل.. الصبر جميل» أطلقنا عليه نحن الصغار هذا النداء الذي يعلن به عن قدومه «عمي الصبر جميل أهو جيه ..» وهكذا.. ونسعى الى عربة صانع حلوى غزل النباتات وله أيضا نداءه المميز. وأغانيه الخاصة.

نتعامل نحن الاطفال مع بائع الحلوى والجرائطة وغزل البنات وحتى عربة التصويب والنيشان وشعاره ونداؤه يشق الأزقة والمسارب

«فتّح عينك تأكل ملبن ..»

لكن مهنة الحاجة صالحة صويلح كانت بالنسبة للطفولة مهنة غريبة على مسامعنا.. غريبة على أفهامنا ومداركنا وغامضة ليست مثل بائع الجيلاطى.. وعربة غزل النباتات، وبائع الترمس وحب العزيز الكمنادى - الربعة بقرش - وضندوق الدنيا.. يبهرننا.. بعلم نتفرج على صور ومواكب ويبهرننا أيضا صانع غزل النباتات يقلب السكر خيوطا ملونة على عربته ذات الموقد الناري.. يصنع الحلوى أمام عيوننا..

عرفنا « أشوف البخت اما ادق وأطهر » شرحوها لنا فيما بعد.. الدق هو الوشم.. وأطهر تغاضوا عنها ولم نهتم بشرحها في طفولتنا الا من ناحية معاكسة صاحبة القفة المتجولة.. في شقاوة الأطفال. وكنا أحيانا نقوم بمعاكستها بتقليد نغمة صوتها ومشيتها.. أو ننادي . «ياست الحاجة.. يابتاعة اشوف البخت !!».

ثم نختفي وراء شجرة.. أو عند منحني مكان. وتظل المنادية المسكينة ترقب وتبحث بعينها وأذنها عن مصدر الصوت والزبون المجهول الذي ناداها.. تقف هنيهة باحثة من أي بيت أو من أي شباك أو دكان كان المنادي.. ونتفرج ونحن ننظرها من بعيد متضاحكين في براءة أو شقاوة الطفولة العابثة ونواصل النداء عليها :

« يا ست يا بتاعة البخت !!»

وتسكت قليلا.. ثم تستمر في مواصلة جولاتها وارتفاع صوتها. وتحاول أن تجعله رخيما. وفيه رنة حزن وأسى. وتحاول أن تتغلب على نبراتة.

<http://Archivebeta.sakn.net.com>

«اشوف البخت وأدق وأطهر.. وأوشوش الودع».

وبعضهم كان في معاكسته لها يقول .. في مداعبة ساخرة :

«أوشوش الجدع»

مع ضحكة اسكندرانية رقيقة :

وتقول أم أحمد. وهي تتدلى بنصفها من الشباك وتخطب جارتها أم جابر :

- موش كده ياختي..

ثم توجه الخطاب لصاحبة الصوت المنادي :

- بخت ايه يا منيكه ما تشوفي بختك أنت ... ما هو

مايل ما تعديليه.

وتستمر في جولتها في دروب الحي في أوقات منظمة كأنها تمشي على خريطة محددة وبرنامج مرسوم بدقة .. في ساعة معينة تسمع صوتها مجلجلا له طابعه ونكهته من بين أصوات الباعة المتجولة.

وهي تقصد الودع الذي من قواقع البحر.. ويعرف قارئو البخت ومستطلعة الغيب في زعمهم ما يقول ويرمز اليه هذا الودع من الريح التي اصدر منه عندما يضعونه على أذنهم، أو عندما يرمونه بعد الوشوشة على منديل يفرشونه، وعن وضعيته وأشكاله عند رميه يستنبطون منه حظا.. ويستطلعون منه غيبا في زعمهم ما يقول هذا الودع.

ثم يتردد في أجواء الأزقة والمسارب صوت ذلك التركي المتعرب، هرب والده من اتاتورك. ويتحدث هذا المتجول بصناعته عن الخلافة وهو يصلح وأبور الجاز مع الشيخ المدرس في المدرسة الأولية بالقباري والورديان أو مع الشيخ عيسى طاهر خطيب الجامع. وكان مصلح بآبور الجاز يصر على لبس الطربوش حتى في أشد حالات الحر. ويجعل منديلا تحت الطربوش ليقية من العرق ويقي جبينه وجبهته من حر الشمس.. ويأنف من لبس قبعة كان قد فرضها اتاتورك في بلاده التي هاجر منها.. ويدور أيضا في الحي الشعبي بالاسكندرية مصلح مفاتيح الباب. اذا عصلج قفل او ضاع مفتاح «افتح الباب اعمر !!»

تتماوج الأصوات هادرة، اصوات باعة تتماوج اصواتهم ولهجاتهم من صعيدي. وبحري، ومن مغربي وشامي وبدوي وكردبي.. الى رومي يوناني. وأنواع من أجناس البشر.

وكانت تمتاز عنهم هذه السيدة التي تتفنن في ندائها لا تبيع بضاعة إنما تتحدث عن البخت وتدق الوشم وتحمل في قففتها ادوات مهنتها حفنة من الرمل في منديل وحبات

قواقع البحر «الودع» لغظتها الأمواج وبها سر من أسرار الكون. وبعض آلات من أمواس ومقص لعملية الختان.. ختان البنات وابرة ومشروط ومسحوق للوشم.

هي ماهرة في عملية الوشم. ويدها خفيفة لطيفة في الختان وتعرف بطبيعة عملها وجولاتها أسماء البنات في الحي كله ومن هنا يمكن ان تكون خاطبة.

وتمتاز من بين سائر المتجولين بالنظام والدقة في التوقيت. تقطع المسافات في جدول زمني حافظت عليه من كرموز وبحري والأنفوش والسيالة وباب سدره والباب الجديد وكوم الشقافة.. وكوم الدكة والقباري، والوردي.. والمكس والغربة الجديدة.. والمتراس ومحرم بك والمنشية وسيدي جابر والحدرة.. الخ.

وقال بعضهم : إنه شاهدها في مداخل الصحراء الغربية بعد الملاحه والعامرية.

وان كان الختان للبنات خاصا بالريف والمدينة لاسكان الصحراء والبادية أو المهاجرين المغاربة كما يطلق عليهم، لكن استطلاع الغيب وشوف البخت والوشم شيء يعرفه الجميع او بضاعة تعرضها للجميع..

ذات مرة رمت القفة بحذافيرها بكل ما في جوفها في وجه أحدهم وأمسكت بزماره رقبته فقد طلب منها طلبا مفاجئا غريبا :

- شوفي لي بنت !!

وظلته خاطبا بالحلال وعلى سنة الله ورسوله

- طيب تدفع كام.. المهر.. وعايضا بنت بنوت والا عازبة اسكندراتية.. والا بنت فلاحه..

ولكن الخبيث الداعر.. مهمه وفهمت منه انه يريد بها بالحرام ولا يريد البحث عن بنت للزواج.. فما كان منها الا

أن ثارت ثائرتها وأرعدت وأزبدت وأمطرت.. وصرخت فيه :
- أنا لست قوادة.. يا تيس يا ولد الحرام ! انا بنت
أصول.. انا صالحة بنت صويلح. جدي كان شيخ قبيلة. وانا
حاجة بيت الله.

وتناثرت صرة الرمل من القفة وقواقع البحر في
عيون ذلك الخبيث الداعر. وهرب خوفا من الفضيحة
والشتائم تلاحقه «ينصرك يا حاجة صالحة بنت صويلح على
أولاد الحرام..»

وعرف الناس من يومها اسمها الحقيقي، واستمر
صوتها المتهدج « نشوف البخت ونوشوش الودع.. ونندق
ونظهر!!»

وذات يوم. اهتزت. واحتجت صارخة في وجه ذلك
الفنان المخرج الذي أراد أن يلتقط لها صورة تكون ضمن
لقطة سينمائية في شريط. وكادت تهشم له الته وتدميه هو
في وجهه.. محتجة كيف يسمح لنفسه أن يصورها ويعرضها
على الناس لتصبح فرجة ولعبة ومسخرة للتسلية.. يتفرج
عليها الناس..

- أهو يا ستي صالحة انت مكشوفة على الناس..
- العمل شيء. وأكون لعبة وفرجة في تياترو شيء
آخر..

- يا ستي كل شيء بحسابه. عايزه كام في الصورة ؟!
- ايه.. والله.. هذا ما بقى.. ابيع صورة وجهي للناس ؟!
- ياست فيها ايه.. وهو عيب ! أحسن منك صورناه..
وهنا ضرب منها وترا حساسا
- احسن منها في ايه !
- وانت رافضه ليه

- علشان يشوفوني كل الناس اللي يسوى واللي ما يسواش

- ما هو شايفينك في الشارع والزنقة وسامعين صوتك : «نبيين.. ونشوف البخت. وندق ونطاهر».

قالها المخرج الفنان في نغمة ولهجة مقلدا صوتها في مرج الفنان .. وشقاوة الشباب المخرج.

وكاد الفنان يلتقط لها صورة خلصة وهي لقطة هامة في شريطه ولكن الحاجة صالحة تنبهت وكانت حذرة لهذا.. لا تريد ان تكون مسخرة في التياترو - مع أنها لقطة سينمائية.. لا تياترو كما تلفظ ونتصور.. وعلى حد تعبيرها لا تريد ان تكون مثل الغوازي ولا تريد ان تكون مثل «ام بحبح» زوجة فوزي الجزائري

هي تفضل الوشم للنساء لكن لا بأس ان ترسم وتدق وشما على ذراع شاويش أو قبضاي .. فتوة.. أو سائق عربية حنطور... الشاويش حميدة يمد لها ذراعه ليدق وشما ويزخرف رسما.. حتى المعلم حمدان كبير الشياطين وأبو حزام في محطة مصر باسكندرية.. والشندويللي مد صدغيه ليدق عصفورة على صدغيه وهي تضحك من سخافة هؤلاء.. رجل بعصفورة ! المفروض أن يدقها وهو طفل خوفا من العين والحسد وليعيش.

والحاجة صالحة صويلح لو اكتشفها متعهد حفلات ومكتشف مواهب في صغرها لدفع بها الى الغناء والتطريب باكرا. صوت ونبرات ما زالت في أعماق النفس يتردد صداها ومداهما عندما تذكرها وتتمثلها في صدى الذكريات العميقة البعيدة.. تتسلل إلى الأذن وترا صافيا له طابعه المميز رغم أنها الآن وراء السدود والسديم في عالم آخر.. وراء الصمت الأبدي

ذهبت تلك الجولات وبقي صوتها متسللا في أعماق النفس.

وكان يتبسط معها متحدثا رافعا كلفة الحديث. مذيبا حدود الطبقة ذلك الذي قالوا : إنه كان طامعا في جمالها يريد أن يلهطها وهو الثري ذو الامكانيات عبدو بي.. وكان يستطيع ان يأتي بالغواني أو يذهب للغواني.. لكن كان هناك من يهوى هذا النوع من البائعات السريجات والجائلات العاملات في محالج القطن أو مشاغل قرب الميناء.. وتعلق عيونهم النهمة الخادمت في ثيابهن في مكان أعمالهن..

وهذا قد يكون من الشبق والوله للجمال في مكانه واطاره. وقالوا في الهمس الغامز : كان يتودد اليها عبدو بي ويتبسط معها في موسم الانتخابات البرلمانية فهي بقفتها الدائرة ولسانها القصيح مثل منشور دوري عندما تتحدث عن كرم الرجل.. وتواضعه. ومروؤته وشهامته.. وخدمته للناس..

هنا تنفع عبدو بي
ايعضا احسان باشا الكريتلي في الانتخابات تودد اليها.. وان كان هذا التودد والتواضع بحاجة

- يا حاجة صالحة شوفي لي بختي..

وان كان وراء هذا التودد والتواضع مآرب

وقالوا في الشائعات اللاغطة :

« لا بد ان تكون عينا من العيون. وخيطا من خيوط المعلومات للسلطة. »

لكن اكد أحد المطلعين على سرائر الناس. والمتتبعين لمثل هذه الامور انها كانت هناك لمهمة في عملها استدعاها حضرة المحافظ لتضرب له خط الرمل ، وتوشوش الودع، وتستطلع الغيب. هل هناك ترقيات وتحولات ؟. وهل ستسقط الوزارة أم تحوز الثقة وباقية ؟

وقالوا في الهمس الدائر.. بل كانت تقوم بعملية ختان لابنة الباشا..

وقال احد المتسلين باخبار الناس المولعين بالفضائح والأسرار : .. بل كانت تساعد على عملية أخرى في ذلك القصر المهم. فقد انتفضت بطن احدى البنات في القصر وخافوا من لسان الخصوم ان نقلوها الى المستشفى. فجاءت الحاجة سالحة أو جئ بها.. لتغطي الموضوع..

المهم رأوها تخرج من قصر الباشا

وقال الشيخ أبو حنظل : إن امرأة الباشا نذرت نذرا، وأرادت أن تتصدق عليها وتحسن لها عطايا وإكراما ولكن الحاجة سالحة بنت صويلح رفضت أن تمد يدها للصدقة والاحسان وقالت في عفة وإباء «ان عندها مهنة» ولم تأخذ العطية الا بمقابل ضربت لها خط الرمل ووشوشت لها الودع.. وبشرتها بخير كثير.

وقالت الست نجية القهلوية.. وهي من بنات بحري العريقات انها شاهدة عيان

- إن امرأة الحاكم الباشا كانت عندها سهرة وأحببت ان تتسلى بهذه الجوالاة القوالة ولكن الحاجة سالحة خرجت من القصر غاضبة لاعنة.. محتجة.. لأنها ليست تسلية.

وكانت زوجة الباشا المحافظ أجنبية.. رومية وجدت في ضاربة الودع وقراءة البخت .. تسلية.. متعة.. وفرجة.

ومن يحكي هذه الأشياء ويرويها ؟

هل هي تحكي وتروي.. ام شكلها وغرابة حياتها او غموض حياتها تدفع الناس في تلك الأحياء لتصور وتنسج أشياء كثيرة عنها وحولها من يوم ان صفت ذلك السمج الذي حاول ان يطلب منها شيئا ارتعبت منه.

ومن يوم ان رفضت المخرج السينمائي في طلبه أخذ

لقطة لها ونهرته علنا..

وكان ينغص عليها.. او يتنافس معها. ويغيظها وتغيظه وتنغص عليه ذلك الذي كان يزعم أنه مغربي. ومن الغرب الجواني أو الساقية الحمراء بالتحديد.. ويرتدي زعبوطا كأنه قادم توا من الغرب الجواني ويلوك لسانه بقافات وجيمات مع أنه خلبوص لم يخرج من الريف والاسكندرية.. كان قد اتخذ مكانه عند حائط البورصة في ميدان المنشية، او عند جسر المحمودية وفرش منديلا صغيرا عليه حفنة من رمل وبضع حصوات وكتاب أصفر متهرئ أظنه الديربي أو أبو معشر أو ابن الحاج - [وهو غير ابن الحاج صاحب المدخل].. او ماشاكل ذلك من أوراق لا بد ان تكون صفراء.. ومبهذلة.. أو بخط مغربي قديم.

هو قاعد عند الحائط في الميدان أو عند مدخل الجسروهي طوافة.. جواله لا تتعب قدماها من السير. ولا تعمل حنجرتها النداء والتنقيم.. تطوف بقفتها .. وما يرى صاحبة القفة تطوف وتنادي أو تمر على الجسر أو في ميدان المنشية قاطعة الطريق حتى يتحوقل ويتعوذا مشنعا عليها.

- هذه المرأة نصابة .. كذابة.. جاهلة لا تعرف تقرأ ولا تتهجى سطرًا في كتاب.. كيف تقرأ سطور الغيب ويشير باصبعه اليها :

- هذه زريعة ابليس.. الابالسة ولا دون..

ويؤكد مرة أخرى.. وهو يرتب اوراقه المتهرئة الصفراء.. المتداخلة صفحاتها .. وارقامها..

- هذه الـ... امية لا تقرأ ولا تكتب كيف تخط الرمل هذا علم صعب على الرجال فما بالك بالنسوان..

ويمط شفتيه الغليظتين .. ويحدج بعينه الحمراءوين ورموشه المتهرئة..

- ايه آخر زمن .. تحدث الودع. ونشوف البخت
وهنا يغيظه حنفي مرسى المجدع أحد العمال من أولاد
بحري في لهجة مداعبة ومعاكسة
- أيووه.. اولاد كار مغتاظين من بعض

لكن اسمع يا حج دي شافتلي بختي ولقيت شغل بعدما
شافت بختي.

ويقول .. قباري بن الحاج ياقوت :

- دي ايدها طيبة. ومباركة طهرت لي بنتي

وهنا عند هذه المحاصرة لا يجد أجدى من الاطراق
والصمت حتى يختفي صوتها.. وتتوارى في طوافها بالأزقة
والشوارع ويحمد الله أن عنده زبائن وزبونات يثقون فيه
أكثر من هذه الطوافة ويسعون اليه وهو مرتكن في هذا
الرصيف ولا يتعب اقدامه مثل صاحبة القفة موشوشة
الودع.. وخاتنة البنات..

ويأتي بحكاية القصة الأبدية.. خروج ادم وحواء.

وكيف اخرجت حواء ادم من لجنة.

ويقول وأصابه تعبث في حفنة الرمل التي أمامه،
ويداعب الحصى بالمنديل الذي افترشه على الأرض :

- هل يمكن ان تكون امرأة بصاراً.. مستطلعة للغيب
وهل الملائكة تعطيها سرا ..؟!..

لا تأمنها على سر الرجال فما بالك بالملائكة وحفظ
الأسرار في صحف الغيب !.

هل دافع هذا هو التنافس [وصاحب مهنتك وصنعتك
عدوك] واعوذ بالله من هذا المثل وصياغته، إن الذي صاغه
نفث به روح الحقد والتناؤذ. لكن ألم يقولوا قديما حتى بين
الرجال الافذاذ كما قال أحد الصحابة في موقف موثر دقيق

[لا يجتمع سيفان في قرن] طبيعة البشر تنافس المعاصرة..
أو تنافس الألداء والحكام وأصحاب المناصب فضلا عن
أصحاب السوق والحرفة والمهنة.

أو ضاربة خط الرمل والوشوشة للودع واستطلاع
الغيب عند حائط الاسكندرية .. أو على ضفة نهر السين
بباريس.

ادق وأطهر.. لكن كانت النسوة الأخريات من غير وادي
النيل لا يعرفن .. أو ينفرن من حكاية ختان البنات. بل
المعروف في الأعراف والتقاليد ختان الذكور وله مهرجان
للمطهرين من الأطفال الصغار.

وختان الأطفال في ذلك الحي الاسكندري يقوم به الشيخ
احمد الأباصيري وخاصة في مولد ابني العباس المرسى أو
مولد القياري وسيدي الدردار.. وهو صاحب يد خفيفة
مباركة أو يقوم به مزين خارج صالونه في زفة وبهجة
وحفل يضاء فيه البيت والزقاق وتقرأ قصة المولد وتزغرد
فرقة من العوالم <http://Archivebeta.Sakhr.it>

أما ختان البنات قبلأضجة ولا موكب.. ويتهاמשن في
حيرة ويتغامزن خاصة نسوة مهاجرات من شمال افريقية.

- كيف ؟ عمرنا ما سمعنا .. عجيبة هذه.. تطهر
البنات ! وتقوم به صالحة صويلح الجواله الطوافه.. وختان
البنات له مواسم وترتيبات..

وان كان شوف البخت لا يتقيد بمواسم. اولعله أمر
يتصل بالحالات النفسية. ومرتبطة بالآزمات النفسية.
والتوتر والقلق. عاطل.. أو عاشق.. أو منتظر لشيء
مترقب. متوجس يترقب في لهفة أو تخوف شيئا في طيبات
الغيب ويتنبأ الغد المجهول.

كانت تستدعى انتباهنا بملابسها ولهجتها ووقفها

المتمايلة على يافوخها.. أو الثابتة على يافوخها وهي المتحركة المتمايلة وتمشي مشية المتمهل .. أو مثل هودج العروس وأحيانا بطيئة الخطو لعل زبوتا يناديها من شرفة أو سيدة متوارية من وراء باب.. أو ضلفة شبك أو ترسل صاحبة الحاجة في استدعائها طفلا صغيرا يتلعثم في كلامه.. ويتعثر في خطواته.

يا بتاعة الودع.. يابتاعة البخت.

وفي ذلك الصباح كانت الحاجة صالحة صويلح تصرخ بصوت عال.. وتبكي مضطربة مذعورة..

- ماذا فقدت ؟

- هل مات قريب لها هذه الغريبة المتجولة ؟

- ما هو النبأ المزعج الذي هزها ؟

- هل اهانها أحد أو اعتدى عليها شرس من بقايا القبضيات ؟

- هل سرقت ؟ .. وعادة مثل هؤلاء الحرفيين والبيعة المتجولة تضيق ثرواتهم من سطو.. أو نهب وعرضة للصوص يتابعونهم ويرصدونهم ويلاحظون تحركات امثال هؤلاء خاصة من كان وحيدا بلا أسرة ولا عائل .. بحاسة اللصوصية يستقصون اماكن ثرواتهم ومكنوزاتهم المخبأة.. يبحثون عن التحويشة.. هل تعرضت الحاجة صالحة صويلح لشيء من هذا القبيل مالها تصرخ وتولول. ماذا دهاها ؟ كانت تصيح وتولول.. وعجب الناس ان تكرر على لسانها في ولولتها :

- شهاداتي .. أه ياني.. شهاداتي.. ضاعت شهاداتي.. راحت شهاداتي سرقوا شهاداتي..

وقال استاذ متخرج من باريس حديثا حتى صباح الخير ومساء الخير.. وشكرا يقولها لك بالفرنسية.. ولعله اول خريج من باريس في تلك الزنقة في الشارع المنزوي.

- شهادة ايه بنت الجاهلة. هي وش شهادات.. يعني تكونش خريجة السربون. والا كامبردج.

وقال شيخ وهو يمسح قفطانه.. ويلعلمه مخافة أن يلوثه طشاش او رذاذ مترب ممن كان يرش الأرض المتربة - شهادات.. شهادات ايه يا بنت لكاع ؟!

هل هي خريجة القضاء الشرعي .. [وهي اشارة الى مدرسته التي كان قد مكث بها عاما ولم يتخرج]
واخذت تواصل الولولة والعياط.

- شهاداتي.. شهاداتي يا ناس !

قال أحدهم في استغراب

- هذه أمية تبصم.. وليها ختم. لا تعرف تمضي اسمها، شهادات ايه يا حاجة وكمان موش شهادة واحدة.

- الى أي شيء تشير هذه المتجولة.

ورد احدهم.. وهو يحك ارنبة أنفه ويمد عنقه كسلحفاة تستطلع.
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- ألم أقل إنها طوافة نصابة. ولو كانت حقيقة تعرف الغيب ولها قوة خارقة وتوشوش الودع أو يوشوش لها الودع لماذا لم يخبرها عن الذي سطا على شهاداتها.

وأخذت الحاجة صالحة صويلح تواصل الصراخ والبكاء وفي ضعف نسائي لطمت خديها. وذرقت دموعها.

- شهاداتي.. أه.. ياني.. يا بختي المايل.. شهاداتي يا حظي المنيل..

وقال أحد رقيقي العواطف من المارين :

- يا ست صبرك بالله. هو الإنسان عرضه ان روحه من بين جسده تضيع. وتروح منه. فما بالك بالذي ضاع منك..

انت حاجة.. ومؤمنة بالله.. صبرك بالله المقدر مكتوب
طولي بالك شويه.. فكري شويه:

- شهادات العمر وإثبات القيمة

وقال أحد الحشاشين، وهو يضحك كقرند يواصل
القرقرة:

- شهادات.. لازم شهادة شيخ حارة.. دي لازم شهادة
ميلاد.. لا.. دي خلو السوابق.. ها أو أو.

وصفحه احد المارة على قفاه قائلا :

- عيب.. دي مرا غلبانة أنت فاضي تدخل معاها قاضيه.
ومضى وهو يتحسس قفاه... ويواصل قرقرته.... اشمعنى..

وقال الأزهرى وهو يغيظ صاحبه الدرعمي :

- يا استاذ هلال الطنبوري لازم تكون شهادة من دار
العلوم.

ورد عليه صاحبه صاعه أو صاعين.

- لا. دي ازهرية من غير عمه.

وقال أحدهم وهو يجرجر رجله الخشبية.

- شهاداتي يعني من الليسية فرنسية. بنت الجاهلة
[وكان عساسا في المدرسة التي أشار إليها]

- لا.. ده من كامبردج [قالها احد الذين قرأوا الاسم في
احدى المجلات]

وتقدم أحد العقلاء المتزنين قائلا :

- ايه اللي راح.. صبرك بالله.. صحتك.. قوللي
نساعذك او نبحت معاك.. أي مساعدة بدل البكاء والدموع
ايه اللي راح فلوس..

- يا ريت..

- صيغة وغوايش وذهب..
- ياريت..
- ملابس وحرير وحاجات من دي.
- ياليت..
- وتقدم أحد المتحلقين. وقد طار صبره أو طار برج من عقله :
- أبوك وأمك.
- وعلى غفلة وبدون فطنة قالت :
- ياريت .. ثم استدركت وتلافت وقال
- ما هو راحوا من زمان الله يرحمهم
- أُمال ايه اللي سرقوه منك أو وقع منك لا هو صيفه ولا فلوس ولا أبوك.. ولا أمك حيرتنا.. ربنا يجازيك فهمينا والا روجي عيطي والظلمي بعيدا. عملتي لنا له في الحته هو الواحد ناقص دوشه !
- شهادتي.. ضاعوا، ابن الحرام لازم خطفهم والا سلط علي واحد من اياهم..
- هي ايه
- شهاداتي
- من أين اخذت الشهادات.. من اي كلية أو مدرسة أو معهد.. ممكن تخرجي بدل فاقد .. اثبات وعليه ختم الجهة من المدرسة او المعهد... أحب يا حاجة اكتب لك طلب، واجبك ورقه دمغه.. معاي قلم كوبيه.
- لا ما هي مدرسة !
- معهد..
- لا موش معهد

- حيرتينا..

- شقى العمر.. اثبات القيمة.. اعظم من الكلية
والمدرسة.

وادرک بعضهم ما تقصد وتوارى خجلا، ولم يفهم
بعضهم وأخذ يسأل.

وأخذت بعد ان هدأت قليلا تشرح والحلقة، تزداد اتساعا
واستغرابا وتساؤلا.

- كل بنت تطهرها.. تحتفظ الحاجة بما يدل على
العملية. ومن المجموعة جعلت خيطا. وكأنها مسبحة كبيرة
تؤكد بها خبرتها وكثرة زبنائها.. وثقة الناس فيها، وقدمها
في هذه المهنة التي تتطلب دقة.. وثقة. جمعت مجموعة
تبرزها لمن يريد ان يتأكد من عراققتها في المهنة منذ عشرين
سنة. أه يا شهاداتي وأخذت تنادي:

- اعوضهم من حين.. يعمل بهم إيه ابن الحرام اللي
خدهم.. الله ياخذ اجله.. شقى العمر راح.

الخيط الذي ربطت به الشهادات ضاع إما من يد عابثة
ماكرة.. أو صدفة.. أو لعله سطا عليها كلب غريب لا تدري ولا
حتى المنجم يدري.

قال خبيث ماكر :

- يا ست وشوش الودع.. خطي الرمل

- ادعى على ابن الحرام ابن الحراميه

قال أحد المارة وهو يهز رأسه.. ويتضاحك

- يعمل بيهم إيه.. حاجه نتنة

وأخذ يسد أنفه عندما تكلم

قال زميل له :

- لازم رماهم في البحر.
- ده لو رموهم في البحر وحياتك ينتنو ويعزلوا وزير
الصحة

وزادت في بكائها وصراخها
- ياست اعملي اعلان في جريدة الاهرام والا المصري
- أجري منادي .. يا عدوي. يا ولاد الحلال حد شاف ..
وأكمل الجملة ممزوجة بالضحك
- يا ست ارصدي جائزة وحلاوة على مين يعثر على
الخييط المبارك.

وقال عويس افندي خريج المعلمين :
- تصور!! بنت المنكوسة تكسب أكثر من أصحاب
الشهادة.. يصيح .. يا عالم الواحد لو سرح بقفة أحسن.
قال احدهم - أهى أرزاق - رزق الهبل على المجانين.
وكان أكثرهم شماتة بها ذلك الذي كان ينافسها في
قراءة الحظ واستطلاع البخت.

- يبدو أنها سقطت منها .. سيظنها بعضهم حبل قديد.
- لو لقاهم الخواجه بين كلبان بعملها بسطرمة يغش بها
زباين الخمارة الخواجه غشاش السيرتو والمزة وعندما
توجهت الى الكركون.. المركز لتقدم بلاغا بضياح شهاداتها
طردها مأمور المركز وقال :

- انه لا يسجل مثل هذه الأشياء في محضر حكومي..
ودفتر محترم. وأوراق للدولة رسمية

امشي يا مره ياعره من هنا.. شهادات ايه.
وانكمدت.. واصبحت في جولاتها تنادي بصوت متأثر
مشروخ.. فقد كانت تدل على مهارتها بإبراز خيط شهادتها

قبل الأقدام على العملية.. واستلام الزبونة لمشروطها.. وظلت صامدة بعد ضياع الخيط وحاولت أن تواصل جولاتها ونداءها لعلها تعوض عن الضائع والفاقد.. وكان معها الكلب الأليف الذي ربهته يحرسها من يد عابث.. أو تسلل لص في غدواتها وروحاتها.. كان الكلب يؤنسها في وحدتها وعزلتها.

وذات يوم شاهد سكان الحي في طرف الإسكندرية الكلب يطوف بقفة فارغة في الحواري والأزقة التي كانت تمر بها قريبة من المنزل.. ويصدر هريرا عجيبا.. بأصوات متقطعة كأنه يريد أن يقول شيئا ويشير لشيء.. ويقف أمام بعض الدكاكين.. ثم يمر بالقفة يجرجرها.. تلك القفة التي كانت الحاجة صالحة صويلح تطوف بها.. سنوات طويلة من عمرها كان يدل بهذا الطواف على وفاتها.

يريد ان يخبر سكان الحي بانقضاء اجلها.. فقد ماتت وحيدة في دارها.. خرج الكلب الوفي بالقفة يجرجرها اعلانا.. ولفت نظرا واثارة للسكان القريبين.

وهرع سكان الحي لتوديعها وحملها الى المقر الأخير وكان مؤثرا منظر الكلب الذي اصر على مصاحبة الموكب مطرقا .. حزينا.. وكان آخر من غادر المقبرة والتفت الى الخلف. ونبح نبحات متقطعة واصدر هريرا في نغمات حزينة كأنه يودعها بصوت فيه لوعات وأنين .. وهز ذيله.. ومضى الى الأفق المجهول وضاع الصوت المجلجل.. نشوف البخت ونشوف الودع وندق ونطاهر.

وبقيت حكاية شهاداتها، واصرار الكلب الوفي على توديعها الى مقرها الأخير تروى في ذكريات الزملاء من ابناء الحي السكندري عندما نلتقي وإشارة الى تلك الظاهرة والاماسي البعيدة

على مصطفى المصراطي

نبذة

جمال الغيطاني، المولود
سنة 1945 بمصر،
صحفي مستقل بل

معارض، هو كاتب روائي
وقصصي ومثقف اشتراكي أيضا
ينتمي الى جيل الستينات عامة
والى تيار الحداثة في الرواية
العربية الجديدة على وجه خاص.
وقد نشر حتى أواخر سنة 1990

حوار أدبي مع الروائي جمال الغيطاني

سبعة أعمال روائية وسبع مجموعات قصصية، وكتبا
صحفية تسجيلية، فضلا عن مقالات ينشرها أسبوعيا في
صحيفة « أخبار اليوم » القاهرية وفي الصحف الأسبوعية
الصادرة في المشرق والغرب.

كنت التقيت به أنا وزميلي الأستاذ أحمد الحذيري في
القاهرة في أواخر سنة 1989 بمقر « أخبار اليوم »
بالصحيفة التي يعمل بها ويشرف فيها على سلسلة « كتاب
اليوم » الشعبية وكنا أجرينا معه حوارا قد نشرته مجلة
الحياة الثقافية بتونس في عددها الـ 58 لسنة 1990 (من
ص 102 الى ص 114) وكان قد عرف من خلاله بنفسه
وأعماله ومواقفه من الأدب والتراث.

ثم التقيت بالغيطاني مرة ثانية في مدينة قابس في
صيف 1990 على هامش مهرجان قابس النقدي حضره مع
زميله « صديق عمره » يوسف القعيد، وقد حدثا أثناءه
جمهور الحاضرين عن تجاربهما في الكتابة الروائية، وعن

خصائص جيلهما. ممّا قال القعيد أنذاك عن الستينات وعمّا بعدها : « إننا جننا في زمن معاكس، وفي عصر مغاير وفي أيام تندح ظلما بشكل مستمر » وعرف الكتابة الإبداعية قائلا : « بالنسبة إلينا الاثنين، الكتابة هي الوسيلة الوحيدة للتعبير عن موقفنا من العالم، وهي أيضا لهم، وهي أيضا الحياة الاجتماعية. وبالتالي ليس لنا سوى هذا الشكل للتعبير عن النفس وعن الذات وتحديد موقفنا من العالم ».

وقد ذكر الغيطاني كلاما شبيها بما قاله صديقه الروائي يوسف القعيد، إذ قال في هذا الحوار الأدبي الذي أجريناه معه ونقدمه هنا مستعملا استعارات مرثية ومحسوسة : « نحن جيل ولدنا في خضمّ العاصفة، نحن جيل مواجهة ولدنا والمطارق تنهال على رؤوسنا وكان لا بد أن نهاجم ونحن نهاجم ».

نلاحظ من جانبنا أن كتاب الستينات قد اشتركوا في عديد من المظاهر : من ذلك السجن والتعذيب ومواجهة النظام الداخلي والتصدّي للعدو الخارجي، ولكنهم اختلفوا في كيفية تقديم رواهم وتجاربهم فنيا، فلئن فطن الغيطاني مع كتاب الستينات الى جوهر الواقع العربي في أهم منعرجاته الحضارية وانتمى الى تيار الحداثة الروائية العربية فنيا، فقد تميّز عنهم بالخصوص بقدرته العجيبة على صهر أحدث التقنيات القصصية العالمية مع أقدم وسائل التعبير الموجود في التراث العربي طي أعماله الروائية.

هذا الحوار الأدبي الذي نقدمه للقراء متميّز لعدة أسباب : من ذلك أنني لم أطرح أسئلة عادية الغاية منها التعريف السريع بالكاتب وبأعماله، وإنما اخترت أن تكون الأسئلة المطروحة عميقة فنية دقيقة، تتصل أساسا بالخطاب الروائي، أي بوسائل تبليغ المقولات الفكرية الى القراء. ثم طرحت أسئلة أدبية واجتماعية تتعلق بمواقف المؤلف السياسية وتقويمه أوضاع النقد والنشر وعلاقته بالقراء

منتظرا أجوبة من وجهة نظر داخلية أي من جانب من يساهم ومازال يساهم في مسيرة الحركة الروائية الحديثة بأعماله الإبداعية، ويتابع الأدب من موقع الناقد والصحفي والمثقف العضوي.

طرحت على جمال الغيطاني إذن أسئلة عديدة لم تخل أحيانا من مشاكسة، لدفعه على الغوص الى أعماق القضايا فكانت أجوبته رصينة عفوية وعميقة معا، أكدت مرة أخرى معرفة صاحبها وإدراكه بدقائق الأمور، ومعاناته في عملية الكتابة، وانتقائه وسائلها، ووعيه الحاد بضرورة إضافة لبنة بل لبنات في صرح الرواية الذي ما فتئ يرتفع بفضل جهوده وجهود رفاقه. وقد كشف الغيطاني من حين الى آخر في هذا الحوار الاغشية ورفع الستائر والحجب عن قضايا مازالت تعاني منها الثقافة العربية وتحد من مسيرة الابداع الشامل وهي قضايا شائكة حادة جوهرية.

وأسر لنا الغيطاني أيضا بأسرار - لم يذكرها حسب قوله لأحد من قبل - تتعلق خاصة بكشفه عن «أسرار المهنة»، فتعرض الى كيفية تأليف أشهر رواياته «الزيني بركات» وبناء شخصياتها المعقدة.

لم يهادن الغيطاني ولم يجامل بل كان حازما قاسيا مع نفسه ومع غيره، ولسوف تعجب مواقف بعض الناس وتثير حفيظة بعضهم الآخر ولكنها في جميع الأحوال تدفع على التساؤل والحيرة الفكرية وتدعو بجراءة وإلحاح الى الدخول في خضم موجات الحداثة.

واننا نلاحظ أن الغيطاني قد لجأ من حين الى آخر الى استعمال استعارات وتشابيه ومجازات طريفة شكلا وعنيفة مضمونا.

لقد تواصل الحوار أكثر من ساعة من الزمن في مقهى على ربوة مطلّة على مدينة قابس ثم في نزل حذو شاطئ بحر قابس... ونقدّم فيما يلي هذا الحوار الأدبي الذي يمكن

اعتباره خلاصة فكر أحد أعلام الرواية العربية الحديثة ودعوة الى الإبداع والتجاوز :

سؤال : تعتبر أعمال جمال الغيطاني الروائية إضافة هامة في مسيرة الرواية العربية الحديثة. وأود في مستهل هذا الحوار الأدبي أن أطرح عليك أسئلة تتعلق ببعض المسائل التقنية والفنية والجمالية، وهي جزء من الخطاب الروائي.

والسؤال الأول هو : ما مفهومك للتاريخ ؟ كيف تفاعلت مع أحداث التاريخ القريب وأحداث التاريخ البعيد؟ وكيف صغّيت تلك الأحداث في أعمالك الروائية... هل بالتسجيل أو بالتعديل أو بالتغيير أو بطريقة أخرى ؟

جواب : إنني أنطلق في علاقتي بالتاريخ من إحساس مرهف وقوي جداً بالوقت.. بالزمن.. وهذا الإحساس لا زمني منذ الطفولة. وأستطيع القول إنني كوّنت مفهومًا خاصًا بي فيما يتعلق بالتاريخ والعلاقة به.

فالتاريخ هو الزمن.. والزمن هو القوة الوحيدة في الكون التي لا يمكن مجابتهتها أو مقاومتها أو الحد منها أو إدراكها في جوهرها. نحن نرى الأعراض ولكننا لا نعرف الجوهر حتى الآن. نحن نرى الصبأ والكهولة والمشيب، ولكننا لا نعرف كيف يمكن أن نفهم القوة التي تحدث ذلك : هذا ما أسميه الزمن، أو ما يمكن أن يسميه المؤرخون بالتاريخ.

بالنسبة إلى مفهومي للتاريخ... أنا لا أعتقد أنه يوجد تاريخ بعيد ويوجد تاريخ قريب. هناك لحظة زائلة فانية مندثرة باستمرار... تولي. وأتذكر هنا قولة أحد شيوخ الصوفية لا استحضر اسمه قال : « إن الإنسان مفقود أو موجود ، بين لحظتين لحظة مضت لن تعود أبداً، ولحظة آتية قد لا يصل إليها، واللحظة الآتية التي يعينها هذا القول، بمجرد نطقنا بها أو تعريفها تتحول على الفور إلى ماضٍ.

* لنتناول ثلاث لحظات من التاريخ في أعمالك ! مثلا
استشهاد الحسين، وزمن الماليك، ونكسة 1967. كيف
تفاعلت مع هذه الأحداث التاريخية بالذات التي توجد في
كتب التاريخ ؟ هل حافظت عليها... هل غيرتها... هل
طورتها...؟

- أود أن أشير قبل ذلك إلى وحدة التجربة الإنسانية.
وهذا ما جعلني ألتقي مع المؤرخ محمد أحمد بن إياس..
كنص وكشخص، ومع ابن عربي في تجلياته، ومع النصوص
المتوارثة التي تصور استشهاد الحسين ومأساته.

رأيت تلك اللحظات -التي ذكرت منذ حين- من موقعي
الآن، ومن تجربتي العامة والخاصة : فقد رأيت هزيمة
الماليك في مرج دابق عام 1917، أمام العثمانيين من موقع
يونيو (جوان 1967)، أي هزيمة الجيش المصري أمام إسرائيل
في سيناء، ورأيت استشهاد الحسين وتنكر أهل الكوفة له،
والتغير الذي أحدثه معاوية من موقع استشهاد عبد الناصر،
والتغييرات التي وقعت في مصر بعد مايو 1971.

أظن أن محاولتي الغوص في فهم الأحداث التي وقعت
منذ ألف عام تعني أنني أحاول فهم اللحظة الحاضرة وما قد
يقع مستقبلا. أنا لا أكتب رواية تاريخية بالمفهوم السائد،
ولكنني أحاول أن أقتنص تلك اللحظة الشاردة دائما والتي
لا يمكن لأيّة قوة أن توقفها وإلا كان العدم ؛ وهي اللحظة
التي تولي باستمرار وتصبح ماضيا. الإبداع أو جهد الكتابة
أو فعل الكتابة هو محاولة لاقتناص هذه اللحظة.

وإنني أعني بالتجربة الإنسانية مقاومة العدم والفناء،
بتأكيد القيم الجميلة الإنسانية، إذ لا فرق بين لحظة
مضت منذ خمس دقائق، ولحظة مضت منذ خمسة آلاف سنة،
فكلاهما لا يمكن استعادتها، ولكن يمكن الاحتفاظ بجوهرهما
إذا صدق الإبداع وعبر عنهما تعبيراً صادقا.

* واستشهاد الحسين ؟ تلك اللحظة. ماذا تمثل الآن ؟

- ... استشهاد الحسين من أجل الحق، ومن أجل العدالة ومن أجل البسطاء... هذا الاستشهاد يتكرر الآن في كثير من النماذج... يتكرر في استشهاد الطفل الفلسطيني، في الضفة الغربية أمام قوات الاحتلال... يتكرر في استشهاد القيم الجميلة التي حاول عبد الناصر أن يبينها وأن يعبر عنها في مصر... وكذلك في ما يتعرض إليه من اغتيال يومي ومن محاولات التشويه...

ولكن دور الفن هنا ودور الإبداع هو الحفاظ على هذه القيم، وهذه العناصر... هذا هو مفهومي للتأريخ.

* ننتقل الآن إلى سؤال ثان، ويتصل بكيفية بناء الشخصية. ما هي المواد التي تعتمدها لبناء شخصياتك الروائية ؟

كيف تشكل تلك المواد ؟ كما هو الأمر في بناء شخصيتي الزيني بركات والرفاعي، على سبيل المثال. وما مدى استفادتك من تجربتك الخاصة ومن التجربة الجماعية ؟

- لكل شخصية في رواياتي أساس واقعي. ولكن، هذا الأساس تبني عليه [مواد أخرى] من الخيلة أثناء عملية الإبداع. فإما تتجمع شذرات من شخصيات مختلفة وتصب في شخصية واحدة، وإما تتكون عناصر جديدة في الشخصية من تصوري لها ومعاشيتي إيها. وسوف أقول لك هنا سرًا : « الزيني بركات » مثلاً... عندما بدأت التفكير في هذه الرواية لفتت نظري في كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» (لابن إياس) شخصية حقيقية موجودة في الكتاب، وهو الزيني بركات بن موسى، محتسب القاهرة، الذي كان من كبار موظفي الدولة. ويذكر ابن إياس في آخر صفحات كتابه، قبل وفاته، أن الزيني بركات : « مازال نجمه في

طُلوع وسعدُهُ في سَطُوع». ولك أن تتخيّل غرابة هذا الأمر
 إذا علمت أن الدولة كانت قد تغيّرت تماما من الدولة
 المملوكية التي كانت سلطنة مستقلة إلى دولة ما بعد
 الهزيمة، حين أصبحت مصرُ ولاية تابعة للإمبراطورية
 العثمانية. وكانت الشخصية مهمة جداً في الدولة المملوكية،
 وأصبح في الوضع الجديد شخصية مهمة أيضاً وفي نفس
 المنصب، إذن لقد وجدت نفسي أمام شخصية انتهازية من
 طراز فريد. وكنت ألاحظ آنذاك شخصية الانتهازي التي نمت
 في الستينات، وهو انتهازي يختلف عن محبوب عبد الدائم
 الانتهازي التقليدي لنجيب محفوظ (في القاهرة الجديدة).
 في الستينات ظهر نوع من الانتهازي الجديد، وكنت أراقب
 بالتحديد شخصية معينة في واقع الحياة الأدبية، كان يسعى
 إلى السلطة من خلال التقرب إليها وحتى الارتباط
 الشخصي بأمرأة تمت بصلة إلى أحد الكبار. وكان يريد
 تسلق المناصب دائماً، ويستخدم ثقافته لتبرير انتهازيته.
 فتزوّجت عندي الشخصيتان، شخصية الزيني بركات
 وشخصية هذا المثقف الذي وجدته يلخص كل سمات
 الانتهازي الجديد في تلك المرحلة. وبدأت الرواية على أساس
 أنني سأكتب عن هذا النمط، ولكنني - حقيقةً - بعد أن
 بدأت كتابة الرواية فوجئت بأن هنالك موضوعاً آخر يطرح
 نفسه من خلال العمل (الروائي)، وهو موضوع القهر الذي
 تمارسه السلطة على الفرد - وهذا الموضوع عانيناه في
 الستينات، وكان من سلبيات التجربة الاشتراكية في مصر
 في ذلك الوقت - وأصبح هذا الموضوع سيد الموقف في
 الرواية، إلى درجة أنني عايشتُ الزيني بركات في مخيلتي
 فترة طويلة قبل الكتابة، وعندما بدأت كتابة الرواية وجدت
 أنني لا أستطيع أن أواجهه، ولذلك تجد أن الزيني بركات في
 الرواية لا يظهر في مشهد مباشر إلا مرة واحدة فقط، وهي
 مرة سريعة عندما يلتقي بزكريا بن راضي في المنزل...

ولكنّ كلّ ما نراه من الزّيني بركات نراه من خلال الآخرين... نرى ردود أفعاله، ولكن لا نعرف ما يفعل بالتحديد في تلك اللحظة. فتلك شخصية مركّبة ومعقّدة جدّاً، أساسها، في الواقع، لا يمتّ بصلة إلى ما انتهت إليه في الرواية. إذن هناك دائماً بذرة في الواقع.

* والرفاعي ؟

- الرفاعي !... الأمر معه مختلف تماماً : لأنّ الرفاعي شخصية حقيقية أنا عرفتُها، شخصية تنطبق عليها كل المقاييس المتعارف عليها بالبطولة.

* أليس خلاصة أشخاص ؟

- لا : لا.. أبدا ! هو حالة متفردة جدّاً. كان موجوداً بهذا الاسم... كان ضابطاً برتبة عقيد في قوات الصّاعقة.

وأنا أعتقد أنّني لم أوفّق في تقديم شخصيته ورسمها، لأنّه في الواقع كان أكبر بكثير جدّاً من الشخصية التي ظهرت في الرواية. الرفاعي شخصية بطولية، ما سجلته في الرواية له تفاصيل حقيقية وواقعية، لم يلعب فيها الخيال أي دور.

* إذن يمكن اعتبار هذه الرواية تسجيليّة ؟

- نعم رواية تسجيليّة. هذا بعكس الزّيني بركات : شخصية من خلقي أنا، مستنداً إلى بعض الجذور الصّغيرة في الواقع وإلى تجربتي في ملاحظة [نظام] الحكم.

* هناك تمازج وتكامل إذن بين التجربة الخاصّة والتّجربة الجماعيّة ؟

- نعم !

* لو حدّثتنا أستاذ جمال الآن عن كيفيّة بناء شخصياتك في رواية «وقائع حارة الزّعفراني» التي صوّرت فيها هزيمة العرب في حرب 1967، وما أصاب سكّان حي القاهرة القديم من تحولات مأساويّة ؟

- لكل شخصية في « وقائع حارة الزعفراني » أصل واقعي ، تقريبا. ومع ذلك هناك شخصيات أخرى لم تكن موجودة في الواقع. فحارة الزعفراني في حقيقة الأمر هي الحارة التي كنت أعيش فيها، [الجمالية].

* وحسن أفندي الموظف التقليدي ؟

- حسن أفندي كان موجودا في الواقع. وبثينة الراقصة كانت موجودة، وكانت جارتنا، ولكن ليس بالشكل الذي ظهرت به في الرواية. وحتى حسن رأس الفجلة كان موجودا، كان في الواقع « مسحراتي [قارع الطبل في رمضان] الحارة » وهو يعيش حتى اليوم.

ولكن التطورات والأحداث التي وجدت في الرواية من خلق... من خيال.

* وجنون حسن أفندي ؟

- هذا الجنون لم يكن موجودا في الواقع. ولكن هناك بذرة لحسن أفندي أنور في قصة قصيرة عنوانها : « الحصار من ثلاث جهات » تصور شخصا يخاطب الرؤساء ويمارس الزعامة إلخ...

ولكنني أعتقد أنه كان لها وجود في منطقة « الحسين ». كان يوجد شخص في منطقة معروف جدا في القاهرة، وكان اسمه «المارشال علي» وكان مجذوبا من مجاذيب سيدنا الحسين («أي درويش)، كان يرتدي بذلة عسكرية من بذلات الحملة الفرنسية، ويضع على كتفيه «رمانات» كضباط نابليون، ويملا صدره بأوسمة قديمة لا يعرف أحد مصدرها، وأغطية الببسي كولا وماركات السيارات، ويقف بجوار الحسين ممسكا بسيف خشبي ويعتبر نفسه جنرالا. وكنت - ونحن أطفال - نعاكسه ونسخر منه إلخ... ربما دخل هذا في شخصية حسن أفندي أنور الذي تصور نفسه - عندما جن - قائدا عسكريا يدير المعارك.

* و«حسّان» هل فيه بعض من تجربتك ؟

- لا. لا. لا أبدا !

* و«رُمّانة» ؟

- رُمّانة شخصية شيوعية حقيقية، تعرّفت عليه في المعتقل. وكان شيوعياً صادقا وحقيقياً. كان عاملا من عمال المطابع. وقد اعتنق الشيوعية من موقع طبقي وليس من موقع فكري. وهو أحد الذين اعترضوا على حلّ الحزب الشيوعي، عندما حلّ في عام 1966. وعندما دخلت المعتقل تعرّفت عليه. وكان بالنسبة إليّ إنسانا عزيزا جدّا، لأنني وجدت فيه صورة كلاسيكية للمناضل الحقيقي.

* والشيخ الكسيح الذي تسبّب في العجز الجنسي لسكّان الحي ؟

- الشيخ الكسيح لا وجود له في الواقع.

* نواصل الحديث مع جمال الغيطاني في هذه المسائل الفنية وننتقل إلى قضية الخاتمة. الملاحظ أنّ أغلب رواياتك تنتهي بأحداث مفتوحة ومن البنّاد من يرى في الخاتمة المفتوحة تعبيراً عن موقف معين. فالكاتب كشخص اجتماعي لا يمتلك الحلول الفعلية المناسبة للمشاكل التي يطرحها في آثاره. وإنّما تكون الحلول جماعية وبواسطة العمل الفعلي في الحياة. ويقال : يكفي الكاتب التزاما وضعه الإصبع على مواطن الداء. ما رأي جمال الغيطاني في هذه المسألة ؟

- أنا لا أوافق على هذا الرأي. إذ أحيانا يكون الحلّ جاهزا واضحا في ذهني، لكنّه فنيا لا يصلح. توجد لحظة من لحظات الكتابة أصل فيها إلى نقطة أتوقّف فيها بدون قرار نهائي... إن العمل انتهى هنا بالنسبة إليّ أنا، ولكنّه قد يستمر بالنسبة إلى القارئ. لناخذ لذلك مثلا رواية: «شطح المدينة» - التي تطبع الآن في القاهرة [يعني صيف 1990] وستظهر في أكتوبر القادم [1990] - لقد كان لي - وأنا

أكتب هذه الرواية - تصورُ لنهاية معينة جاهزة مكتملة في ذهني، لا ينقصني إلا كتابتها أو الاستمرار حتى الوصول إليها. ولكن في لحظة معينة، وقبل أن أصل الى نقطة تلك النهاية، وضعت نقطة نهائية، واكتملت بذلك الرواية هناك ! إنَّ القارئ الذي سيقراً هذه الرواية بعد عشر سنوات، أو عشرين سنة، أو بعد أن تظهر مباشرة، قد يتوصل إلى النهاية التي توقفت عندها. من هنا فإنني أطلب من القارئ مزيداً من المشاركة من خلال النهاية المفتوحة التي لا تريح. وهي موجودة في الموسيقى العربية حيث النهايات الأنهائية...

* ونجد ذلك أيضا في النعمات وفن الزخرفة العربي..

- ... نعم في «الأرباسك» الأنهائي، وكما في المصائر... أنظر كيف أن مصائر الإنسانية تتصل، وتتماسك، وتتفصل، وتتفرق، وتتجاوز، وتظل مستمرة بلا نهاية. مثلا الوحدات العربية - وأذكر هنا بأنني درست هذه الوحدات في صنع السجاد - هذه الوحدات تظل تتشعب إلى ما لا نهاية تماما مثل الكون، فنحن لا نعرف نهاية الكون حتى الآن... العلم الحديث يقول إنه يتمدد. ولكن أين يتمدد هل داخل كون آخر أو خارجه. من هنا أطلب من القارئ أن يشارك أكثر في النص، فأحيّره.. ولا أريحه.

* تقول إحدى النظريات الحديثة في النقد إنَّ القارئ يلتذ بالقراءة... يلتذ بالأصوات المنبعثة من النص وبجرس الحروف وبإيقاعات الجمل إلخ... هناك تأثير ينطلق من النص ويتجه نحو القارئ. فأسألك أنا : كيف كان تقبل القارئ رواياتك ؟ هل تفاعل مع جهدك المضني في تجديد التراث وتوظيفه ؟ مثلما يتفاعل المستمع عند ترتيل القرآن الكريم، حتى وإن لم يكن يفهم مقاصده. هل خاطبت وجدان القارئ العربي وعدت به إلى جذوره ؟

- نعم لقد تفاعل القارئ جداً أكثر مما يتصور !

وفيما يتعلّق بتجربتي وبتصالي بالقراء، أعتقد أنني من الذين كسروا دائرة الصّفوة في فترة مبكّرة جدّاً، إثر ظهور كتابي الأوّل مباشرة، أحدث ردّ فعل كبير ولقي صدى وترحيباً، فبدأت أعي ما أفعل وبدأت أنظر. أنا همّني جدّاً التّجديد... حتى الأساليب السّردية التي استعملتها، كانت الغاية من محاولة استيعابي إيّاها كسر رتابة اللّغة العربيّة. ولا يمكن أن أتصوّر أن يكتب عملٌ أدبيّ كبير مثلاً بلغة واحدة. وإن من أكثر ما يثير استفزازي أن يقال لك «أسلوب الكاتب» ما هو أسلوب الكاتب ؟ (ضحك الغيطاني ضحكة قصيرة ساخرة...)

ويذكّرني هذا الأمر بمطعم كان موجوداً في الزّمن الماضي في حيّ الجمالية اسمه مطعم الإيراني. وكان صاحبه يضع «حلّة» (أي قدرا) ضخمة من المرق و«حلّة» من الكوسة و«حلّة» من البطاطس و«حلّة» من الفاصوليا. تأتي أنت تطلب طبقاً من البطاطس، فيضع لك قليلاً من البطاطس في الطبق، ثمّ يأخذ من قدر المرق فيضيفه عليه - تطلب فاصوليا فيضع الفاصوليا المطبوخة في الطبق ويضع نفس المرق عليه. وفي النهاية أنت تأكل طعماً واحداً. ولكن عندما يكون لكلّ نوع من الأكل مرقه تكون أنذاك النكهة الخاصة...

ولذلك لا تجد في «التّجليات» لغة التّصوّف، وإنّما تجد فيها أكثر من لغة وأكثر من أسلوب. وقد وضع «بشير القمري» يده على ذلك : ففي الرّواية تجد أسلوب الفقه، وأسلوب الفتوى، وأسلوب الموعظة وأسلوب الوصيّة، وأسلوب التّاريخ والأسلوب الفلسفي، وحتى كتب الطب العربيّة أنا أستوحي منها بعض الأساليب في الكتابة الخ...

* ومسألة القارئ والتلقّي ؟

- أستطيع أن أقول لك بكلّ أمانة إنّ قارئني موجود جدّاً، والدليل على ذلك إعادة طبعات كتبي. فرواية «الزّيني بركات» صدرت في كتاب لأوّل مرّة سنة 1974، وطُبعت

منها حتى الآن، في 16 عاما، ست طبعات، ومنها طبعة بـ 30 ألف نسخة، وهي الطبعة الشعبية لـ «كتاب اليوم».

و«التجليات» عمل صعب وغالي الثمن. طبع في أقل من أربع سنوات مرتين؛ كانت المرة الثانية طبعة كاملة في ألف صفحة في ثلاثة أجزاء، وبسعر باهض جداً، وأوشكت على النفاذ، في مدة ستة شهور اذ طبعت في يناير الماضي. وهم الآن يستعدون لإصدار طبعة أخرى... أننا ليست لي أزمة قراء.

* ونوعية هؤلاء القراء ؟

- النوعية مختلفة ومتنوعة : طلبة الجامعة... وأعتقد أن الجيل الموازي لي أو الذي جاء بعدي هو الجمهور الأساسي للقراء. وتجدهم موظفين ومثقفين وحتى ربّات بيوت... يعني الفئات التي تقرأ في مصر. وهناك عمال أيضاً. مشكلتنا هي مشكلة «توصيل» [توزيع]... لما ظهرت رواية «الزيني بركات» بجنبة واحد، أنا تلقّيت رسائل وصلتني من قرى قصية في الصعيد، من مدرّسي ابتدائي، وعمال وحرفيين اشتروا الرواية وقرؤوها ! كيف نصل إلى هؤلاء القراء إذا كان متوسط سعر الكتاب اليوم في مصر عشرة جنيهات ؟ لا حلّ إلا بالسلسلة الشعبية. وقد بدأنا نعمل بهذه الطريقة منذ بضع سنوات، من خلال «روايات الهلال» ومن خلال «كتاب اليوم» الذي أشرف الآن عليه.

* نواصل الحوار، وننتقل - إن سمحت - إلى مسألة أدبية إجتماعية أخرى... نلاحظ في الشعر الحديث، كما هو الشأن بالنسبة الى الرواية الحديثة، وجود إبداع، إلا أنه ليس كاملاً مرتبطاً بأديب واحد وإنّما هو مقسم موزع بين عديد من الأدباء... وكلّ رواشي من جيل الحداثة يتميز بجملته من الخصائص. كيف تفسّر غياب الإبداع الكامل الشامل في الرواية العربية ؟ فنحن لم نجد نجد أقطاباً وأسماء منفردة وإنّما أصبحنا نجد حركة كاملة. ما رأيك ؟ هل توافقني على

هذا الطرح أو تخالفني ؟

* أنا لستُ مخالفًا. أنا أعتقد أنه توجد الآن حركة روائية و بداخلها تنوع كبير. ولنتحدث عن مصر التي أعرفها جيدًا : الإبداع موزع على خمسة أو ستة أسماء، ولكل واحد تجربته ؛ هذا أمر جيد، إذ لكل واحد تجربة تختلف عن الآخر. لم يعد هناك روائي أوحده. والمستويات هنا تتفاوت بالنسبة إلى الجمهور، حيث يكون تقبل تجربة هذا أو التحفظ على تجربة ذلك. ولكن التجارب تختلف. ويصبح هناك تنوع أكثر...

بعكس العصر السابق الذي كان فيه مستويان : مستوى نجيب محفوظ، ومستوى يوسف السباعي ومحمد عبد الحليم عبد الله وأمين يوسف غراب وثروت أباظة، ولا يمكن أن تقارن، وبالتالي لم يكن هناك إلا نجيب محفوظ.

الآن لا تقدر أن تقول يوجد نجيب محفوظ واحد، وما عداه أقل مستوى. لا. الآن يوجد أكثر من واحد. وهذه الظاهرة مرتبطة بحيل الستينات، الظروف التي نشأ فيها هؤلاء الكتاب واحدة، ولكن كلاً منهم تأثر بطريقته، وكلاً منهم استوعب بطريقته، وكلاً منهم عبر بطريقته. وبالتالي وجد هذا التنوع.

* وعلاقتكم بالسلطة ؟

- نحن أدبيًا... كنا مظلّهمين : لن نكون مدعومين لا في الماضي ولا في الحاضر. نحنُ فرضنا أنفسنا على المؤسسات وجعلناها تحترمنّا بجهدنا.

ونتيجة الظروف المعقّدة الموجودة في مصر سواء من السلطة أو المعارضة، كانت تحدث أحيانًا مشاكل مع المعارضة نفسها التي ننتمي إليها. وهي فكرة أن السياسي يحاول دائماً أن يستغلّ الأديب أو الفنان ويطوّعه. بينما رأيي أن الأديب أو الفنان مؤسسة أهم من أي حزب. ولا بد من

المحافظة على شخصيته واستقلاليته. لا تأخذني! من يا ترى يوجهني لأتخذ موقفاً ؟ قد يوحى إليّ هذا، قد أقرأ تحليلاً سياسياً، قد أنفعل به وأفهم الواقع أكثر. ولكن من يعطيني أمراً لأفعل كذا أو أمتنع عن كذا أو أكتب كذا أو أتخذ هذا الموقف أو أرفضه ؟ تلك مسائل ينبغي أن تكون نابعة منّي أنا شخصياً.

* لعلّ العمر أيضاً... فالإبداع الكامل لا يكون إلا بعد سلسلة من الإنتاجات وأنتم ما زلتم تكتبون. والريادة (أو الشهرة) لا تكون إلا بعد عشرات السنين من الكتابة، فبالإنتاج الغزير والابداعات التي لا تعيد نفسها، قد تصل إلى الإبداع الكامل، في يوم من الأيام، إذا تواصلت المسيرة على هذا النسق وهذا الاتجاه... ثم نصل بعد ذلك إلى السؤال الموالي وهو :

هل تعتقد أن الرواية اليوم تسير في الدرب الصحيح، كما ذكر ذلك الأستاذ جمال بن الشّيخ، أم أنّها تعاني في البلاد العربية من أزمة ومن مشاكل. وإن وجدت... فكيف يمكن تفاديها حسب تصورك ؟ ما هو تقويمك للحركة الروائية العربية بصفة عامة ؟

- الرواية العربية تسير في الدرب الصحيح فنياً. ولكن تحفّ بها مخاطر :

تسير في الدرب الصحيح. نعم فلديك أسماء روائية كبيرة في العالم العربي مختلفة، وتجاربها متنوعة وفي أقطار عربية متعددة، في تقديري أن الخطر الحقيقي - الذي لا يهدّد الرواية فقط وإنما يهدّد الشعر أيضاً - هو أزمة الديمقراطية ؛ فأنت لا يمكن أن تجد رواية تتحدّث بصدق وصراحة عن الوضع في السعودية مثلاً أو الخليج. وحتى في الدول الرأسمالية الموجودة في العالم العربي والتي ترفع الشعارات الثورية، هناك محاولة لجعل الإبداع تابعاً للإعلام - وأنت تفهم ما أعني - إذن الأدباء في مثل هذه الظروف في

وضع بانس صعب. عندما يجد الأديب نصّه الأدبي يفسّر التفسير المخبراتيّ للأدب والأمنيّ... هذا من أكبر الأخطار التي تهدّد حركة الإبداع العربيّ عامة.

وأنا أرجع الأزمة التي يمرّ بها الشعر العربيّ الآن إلى هذا العنصر بالتحديد : لأنّ الشعر غير الرواية، فالرواية يمكن أن تتخفّى، ويمكن أن يكون وصولها الى القارئ مختلفاً عن الشعر الذي فيه خطابيّة مباشرة وتحريض مباشر واتّصال مباشر مع الجمهور. ولكن نتيجة ظروف القهر البوليسي التي تعيشها معظم الأقطار العربية لا يمكن أن يولد شاعر كبير... شروط المرور الى الجمهور في بعض الأقطار العربية أن تمتدح الحاكم. افترض أنّني لا أحبّ الحاكم! كان عندنا زعيم عظيم [هو عبد الناصر]. عندما كان حيّاً، كنت لا أحبه، وكنت أختلف معه، ثمّ بدأت أحبه بعد أن مات نتيجة تدهور الوضع. فإنّ حرية المبدع هي الأساس.

* السؤال الموالي متعلّق بالنقد إن سمحت :

كيف ترى النقد الحالي ؟ هل يساعد على تطوّر الإبداع أو إنّهُ يعاني هو أيضاً من بعض الخلل. وكيف تتصور وظيفة النقد الموضوعيّ الجيد ؟

- ألاحظ - وأنا أتحدّث هنا عن مصر بالتحديد - أنّ الحركة النّقدية تعاني خلال لظروف كثيرة جدّاً، يرجع بعضها الى ظروف الانفتاح وما نتج عنه من غياب عدد هام من الاسماء الكبيرة سواء بالهجرة أو بالموت أو بالصمت، وهناك ظاهرة الإعلام النفطيّ فانت تجد مجلة نفطية مثلاً تستكتب ناقدًا في موضوع محدّد حسب عقد غير منظور سلفاً بين المجلة والكاتب وهناك موضوعات معيّنة لا يقترب منها وأعمال معيّنة لا تتناول بالدّرس. وتدفع له المجلة مبلغاً - لو أنّه كتب كتاباً كاملاً لما أخذ مقابله عشر هذا المبلغ مثلاً- أضف الى ذلك اختلال المقاييس وعدم التوفيق بين التّراث النّقدّي القديم وبين المدارس النّقدية الحديثة : إنّنا نجد عندنا

في مصر مثلاً «مجلة فصول» وهي مجلة فخمة للنقد، ولكنها غير عملية، لأنه وقع فيها تبني اتجاه البنيوية. وقد طُبِّق ذلك الاتجاه على الأعمال الإبداعية التي ظهرت في مصر.

حدث ذلك ولكن بشكل محدود وغير جذري. لماذا كان ذلك ؟ لأن التطبيق أصعب من أنك تترجم نصاً لرولان بارط أو ميشال فوكو. ولكن نجد من ناحية أخرى أنه ظهرت في الجامعات حركة نقدية قوية من خلال الأبحاث والتطبيقات التي تنجز داخل كليات الآداب.

* وكثير منها لا ينشر !

- نعم كثير منها لا ينشر، هذا صحيح وهذا جزء من أسباب الأزمة أيضاً...

* هناك فرق أساسي بين الجيل الذي تنتمي إليه والجيل الذي سبقك في طريقة تصوير الواقع، ونقده ويذكر النقاد أنكم تميزتم أنفسكم بجيل الحداثة بنقد المؤسسات نقداً عنيفاً جداً. فما هي هذه المؤسسات <http://Ar&n>

- طبعاً نشأة جيلنا مختلفة عن الجيل السابق، وكذلك تكويننا، نحن جيل ولدنا في خضم العاصفة. نحن جيل مواجهة. أما جيل نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويحيى حقي فقد كان جيلاً محافظاً إلى حد ما ، وحتى إذا نقد فإنه ينقد من وراء الزجاج، ومن بعيد ولكن نحن ولدنا والمطارق تنهال فوق رؤوسنا. وكان لا بد أن نهجم (بالكسر) ونحن نهجم (بالتفتح). هذا هو الفرق الأساسي بيننا. لا يوجد تقريباً أديب مبدع من كتاب الستينات إلا دخل السجن أو فصل من العمل كلنا جميعاً بدون استثناء لنا مواقف تتراوح بدرجة أو بأخرى في رفض ما هو قائم وما هو موجود.

* ما هي المفاهيم والقيم التي ترفضون والأخرى التي تحلمون بتحقيقها ؟

- هذا الأمر يختلف عن الجيل السابق بشكل جذري. نستطيع القول : على مستوى وطني كانت هناك مشاكل في الداخل تتصل بالتنمية بالعدالة الاجتماعية ومشاكل كبيرة على مستوى قومي مثل المشكلة الفلسطينية، ومشكلة اسرائيل... ومشكلة تربص الغرب الاستعماري بنا الخ... كل هذه الجهات نحن نحارب عليها في وقت واحد.

* وهل إن المسؤول عن الخيبات السلطة الحاكمة فقط ؟

- والأوضاع الاجتماعية أيضا! طبعا الأنظمة الرأسمالية الموجودة، والأنظمة الوطنية التي نشأت بعد الاستقلال، ولم تكن في مستوى المرحلة المطلوب.

* نختم هذا الحوار بسؤال أخير :

كيف تتعامل مع الجنس ؟ هل الجنس مستقل أو أنه مرتبط بروية كاملة ؟

- طبعا الجنس مرتبط بروية كاملة وأنا أعتقد أن الجنس ركن أساسي في النشاط الإنساني وفي الوجود الإنساني. وأنا ضد الحجب أو الستر التي تحاول أن تحجب هذا النشاط.

ولكن للأسف الشديد جداً، أنا لا أستطيع الكتابة كما أريد في هذا المجال، نتيجة المحاذير الكثيرة الموجودة في العالم العربي وفي الأدب العربي. الآن، ونتيجة تلك المحاذير تصبح الكتابة عن الجنس صعبة. ولكن في نفس الوقت الجنس من أشد الأنظمة الإنسانية تعقداً وأصعبها، وهو مصدر الحياة.

* شكرا على تفضلك بالإجابة عن هذه الأسئلة.

بوروي عجيبة

مقتطفات من الحوار

- (1) - الإنسان مفقود (أو موجود) بين لحظتين.
- (2) - أحاول فهم اللحظة الحاضرة واقتناصها.
- (3) - الإبداع محاولة اقتناص لحظة شاردة.
- (4) - القهر سيد الموقف في رواية الزيني بركات.
- (5) - أطلب من القارئ أن يشارك أكثر في النص.
- (6) - لا يمكن أن أتصور أن يكتب عمل أدبي كبير بلغة واحدة.
- (7) - لا حلّ إلاّ بالسلاسل الشعبية.
- (8) - لم يعد هناك روائي أوحد... لكل واحد تجربته.
- (9) - الأديب مؤسسة أهم من أي حزب ولا بد من المحافظة على شخصيته واستقلاليتته.
- (10) - الرواية العربية تفسر في الدرب الصحيح فنيًا، ولكن تحف بها مخاطر.
- (11) - نحن جيل ولدنا في خضم العاصفة، نحن جيل مواجهة، ولدنا والمطارق تنهال فوق رؤوسنا.

الإهداء
إليه.. إلى الأنا
الأخر في.. بلبسني
ولا البسه..

... دخان السجارة يرتعش
بردا.. يرتجف... تصطك
أسنانه... يرتد إلي... يتلاشى
قبل أن يصل... أنفث من جديد..
يتبعثر هاربا.. أناديه... يضع
صوتي مني.. لا أجده... أحاول

الخد الإخضر

اللحاق به... لا أقوى على ذلك... رجلاي تضطربان... تفقدان
توازنهما... أتمسك حيث أنا... البرد يتسرب إلى أعماقي..
غربة قاسية... تضع نظراتي في اللا شيء... لا تصطدم
بشيء.. ألتف ببرنسي الدأكن.. ألتمس دفءا افتقدته منذ
زمن بعيد.. منذ أيام الخريف الأولى... فللخريف بصمته
الخاصة... ولذته الخاصة لدي... شوقي إليه لا يحد... لهفته
إلي تؤسس الحلم بداخلي... عند الفجر كنت أهرع إليه...
أندس في دفته زمانا ومكانا... أبعث أحلامه الليلية.. أسيطر
عليه بشكل رهيب... يللم بقايا ذاكرته... يمتزج صوته بطعم
قهوة «عربية مزهرة»... نضجت على نار صامته اختزنت
دفنها في أحشائها.. يمسك بإصبع «الخضراء» بين أنامله...
يختلط دخانها بأريج القهوة... رائحة غريبة تخترقني...
تتسرب إلي أحلاما وهواجس... أقترب منه أكثر... أدس يدي
الباردة في صدره العريض... أعبت بغابته... أبعتها.. يزول
خوفي.. أجدني قويا لن أهاب لعب الأطفال... سأشاركهم
كلها.. ساكون «الملك الحاكم» بينهم... «... لا... أنت لن تتقن

دورك... أنت... «... أنظر إلى جسمي المضطرب تتحجر
الدُموع بمقلتي... أبتعد عنهم... تصلني ضحكاتهم نشازا يشق
الصمت بداخلي... تغوص يدي الصغيرة في الغابة... تكاد
تقتلع نباتاتها... يمسح بكفه الغليظة على وجهي... يزيل
بقايا حزني الأمسي مني... أغمض عيني المثقلتين حنينا
توقا إلى غيب بعيد... أحاول رسم ملامحه بطفولتي
الدائمة... أبتسم وأنا أحتضن العالم... كل عالمي الكبير
هناك... يأتييني صوته حلما شهيا...

«... كل سكان القرية تتفاعل به... تحاول الاصطدام
به... ما حلّ ببيت إلا وجلب له الخير واليسر... كان بيتنا
أكبر بيت آنذاك... يقع على ربوة تشرف على القرية... كان
يحرس كل المنازل الأخرى... وكان مقصد كل الغرباء... هو
لم يكن غريبا... لقد ألفنا مقدمه مع أمطار الخريف الأولى...
يسبقها إلينا محملا بالتمر والبخور وغبار السفر...»
أتذكر أن حكاية الرجل الغريب لم تنته قط... هي الماضي
والحاضر والمستقبل... شريط طويل متعاسك لا تنقطع
أحداثه ولا ينهزم أبطاله... أذكر أيضا أنني كلما ألححت على
والدي المزيد... يربّت على رأسي الصغير... فاندس أكثر في
برنسه الدّاكن أشتّم رائحة فريدة متميّزة تملؤني دفئا
وأمنّا... «... الطريق طويلة أمامه يا ولدي... لم يصل المحطة
القادمة بعد... رجلاه تعبتا من السير... استند إلى نخلة
عملاقة من نخيل الجريد يطلب رطبها و...» أرفع عيني
إليه... تصطدمان بعينيّه لون مساء خريفي مطر... أرى
النّخيل بهما يعلو... يعلو... يتحدّى الأفق... أتشبّث بالجذع...
أحاول التسلق إلى الأعلى... أمسك بالسّعف والقمة مني
تهرب... أفقد توازني... أهوى أرضا... أجدني فوق صدر
الغابة أحلم بألف غد لن يكون... على مقربة مني جلس
شابان على المقعد الحجري بهذه الحديقة الصغيرة... كانا
يطيلان النظر إلى السماء... مسحة حزن كست وجهها
الطفولي... أبعدته عن دخان رفيقها المتواصل في عبثية...

همست إليه بكلام أثاره... ألقى بعقب السَّيَّارة أرضاً...
 داسه... نظرت إليه... فتتت الصَّقيع بداخله... تناول
 صحيفته... فتحها... تلهَّى بقراءتها... وقفت هي... اتجهت
 نحو صبيٍّ صغير يجمع الأوراق المتساقطة... ألوان صفراء
 خضراء... حمراء بنية... برتقالية... مزيج من المشاعر
 والأصوات تبحث عن مصغٍ لها... يصلني حفيفها حيننا
 كليما... يجتاحني... يعترضني... أطيل التأمّل فيها... لوحة
 متداخلة متشابكة... رائعة الظلال... مختلفة التّجاويف
 والخطوط... أسرع الصبيّ إلى أوراقه يحتضنها... يخفيها...
 تكوّم فوقها يصرخ... يرفض فقدها... تراجع الفتاة
 مندهشة... لم تفهم شيئاً... لم يفهم الصبيّ منها شيئاً...
 غادرت الحديقة والنّظرات تلاحقها... تزيد في ألها... تحفر
 هوةً بينهما... تركت برنسي على المقعد الحجري... جثت قرب
 شجرة عملاقة... أثبت التّفريط في كلّ أوراقها... خشيت ألا
 تجد ما تهديه لرياح الخريف الأخيرة... جمعت الألوان الحيّة
 النّابضة... شيّكت منها منازل وجبالاً... بكلّ الطّفّل في
 زوّقتها... بكلّ حنيني للعبتي القديمة أتقنت تكريم المرتفعات
 والتلال... هو فقط كان يلفحني بأنفاسه وهو يمدني بأوراق
 وأوراق... كان يطيل النّظر إلى أشكالي... لا أدري كيف
 يجدها... أحسن ابتسامته التي لا تفارقه تخترق ما أكوّن...
 تسكنه... تبصمه... أفرح في صمت... كان يختار الورقة
 التي تحوي كلّ الألوان في نفس الوقت... وكنت أطيل إليها
 النّظر بدوري... أغوص في الحمرة التي تشوبها... أهي حمرة
 خجل وحياء... أم حمرة ثورة وتمرد... عاودني الفرح من
 جديد... ملا قلبي الصّغير... أحسسته يرتعش بداخلي...
 الرّذاذ يعيدني إلي... ما أسعدني وأنا ألتقي بذاتي بعد طول
 جفاء... أنفاسه الحارّة تلفحني... تداعب وجهي... أرفع إليه
 عينيّ المشبعتين مطراً وخصباً... تصطدم بعينيّ طعم خريف
 غابر... أجده هو... أجد الصبيّ الصّغير وقد وضع يده على
 كتفي بينما ملا الأخرى أوراقاً وأملا وتوقاً... أضع يده

الصغيرة بين كفيّ الباردتين... أحاول أن أجد فيه بعضي...
جزءاً منّي ضاع وسط رثابة الحياة وقساوتها... أترك له
المكان والزمان... أبتعد... وأنا أفكر أينما وجد الآخر داخله...
أعود إلى برنسي... ألتفّ به... أنثر ما تساقط فوقه من
أوراق بحثاً عن الدّفء والحلم... فقط واحدة تشبّثت به...
علقت بصوفه الدّاكن... وجنتاها المورّدتان خجلاً وثورة
استغاثتا بي... استنجدتا بطفولتي منذ لحظات... وضعتها
داخل جيبي... الرّياح التي هبّت كادت تأخذها منّي... وأنا
أغادر الحديقة الصغيرة... رأيت الوجه الصغير يناديني...
تمتدّ يده إليّ... وقد تلاعب الخريف بما شكلنا وألفنا... رغماً
عني تغادرني ابتسامتي إليه... الرّذاذ يحثّ المارّة على
الإسراع في سيرهم... وددت لو أنّي أسرع مثلهم... ألهو
معهم أسابق الرّيح... أتسلّق الأشجار... أشردّ العصافير من
أوكارها... أمسك بالنّحل... أسكنه القوارير... أنتظر العسل
الذي سيطفح منها... ألتهمه مع الخبز الساخن... تختنق
أنفاسي... تهتف بداخلي أصواتهم... لن تكون ملكنا...
ملكنا لن يكون أعرج... »... يحزّني الألم برجلي اليمنى...
الجرح لم يلتئم بعد... وأنا بأحد المستشفيات سألني الطّبيب
عن الحادث الذي تعرضت إليه في صباي الباكر... ألجّ على
اكتشاف كلّ الأسباب التي جعلتني أفقد جزءاً من الشّظية...
عبثاً تذكّرت كلّ ما وقع... جمّعت كلّ الماضي في زاوية
صغيرة... تصفّحتها شبراً شبراً... أبداً وصلت إليّ ما أريد...
كانت الهوة تتباعد بيني وبينه... وكأنه ليس منّي... ولست
منه... فقط أذكر أنّني لم أكن أجري كثيراً... لم أكن أسابق
لذاتي... أحسنّ الألم ينسفني والأطفال يتحاشون اللّعب
معي... ألعابهم الكثيرة لم تجذبني إليها... الملك فقط كان
يغرّيني بتاجه الورقيّ... أوراق صفراء وحمرّاء... خضراء
بنّية مزيج رائع في غير تناسق... »... الملك قويّ... جبّار...
وأنت... »... أبتعد عنهم... أسمرّ الدّموع بمقلتي... يسبقها
الرّذاذ إلى وجهي الصغير... يزيل عنه الألم الدّفين... أصطم

به... أحسّ أنفاسه تعيدني إليّ... أجد العالم فيه... يدثّرني
ببرنسه... أتعلّق برقبتّه... رائحة «الخضراء» والقهوة
«المزهرة»... ممزوجة برائحة المسك والطيب... تصلني حتّى
النّخاع... تتوجّني ملكا زمانا ومكانا... أطلّ من فتحة
البرنس... كلّهم ينظرون... يتمنّون عالمي ذاك... أتحدّاهم
ببسمتي الدائمة... أنكمش في الدفاء... أخاف أن يضيع منّي
هذا الخريف الحلم... رجلي تؤلّمني... أقف... أرفعها قليلا عن
الأرض... يزداد الألم... أرجعها حيث كانت... أبحث عن علبة
السّجائر... لا أجدها... أطلب واحدة من الكشك حيث أقف
أبعثر أليّ... بطاقات التهنئة بالعام الجديد لفظها المكان
خارجة... حمام بيض تكاد تغادر إطارها الضيق إلى
المطلق... أزهار صفراء حاملة... توشك على الاختناق... قطعة
صغيرة عيناها بلون الخريف تناديني... أسمع مواءها
الأنين... أقترّب منه... أجول بعيني... تصطدّمان بالأشياء...
المواء ينخرني... يناديني... أبحث عنه... أنزلق في مطمورة
قديمة غطّتها الأعشاب والأوراق... تصطدّم رجلاي بجسم لزج
ناعم... يختلط المواء بصوت الصرخة... لا أذكر شيئا
بعدها... فقط وخزة حادة أحسّها بكلّ جسمي... هي نفسها
التي تعاودني باستمرار... بآلم فظيع لحدّ الإغماء... دموع
الصبيّ في تسقط بلا خجل... «... لن تكون ملكنا... ملكنا
قويّ...»... يتطوّر إحساسي بهذا الحادث الألم إلى
النقيض... يتحدّ النقيض بالأمل... يكونان إحساسا جديدا...
لا أعني هذا الإحساس... هو يعلّوني... يلازميني... «...تفضّل
سيدي.. ماذا تريد...»... أنظر إلى البائع أمامي مرتبكا...
«علبة خضراء...»... يبتسم ويخبرني بأنّ «الخضراء» لن
تباع ثانية... أنتشل القطعة من مكانها... أسكنها الظرف...
أضع الثمن وأمشي... أمشي بلا هوية... لا أعرف لي زمانا
ولا مكانا أرتاح إليه... أصواتهم تلاحقني... تعنّفني...
«...ترفض أن تدرّسنا... ترفض... نرفض أن...»... تطفو
غمغماتهم من جديد... «... لن تكون ملكنا... ملكنا قويّ...»

... امتزج الحاضر بالماضي... انبثق غدا كليما... قطرات
المطر تجذبني إليها... أركن إلى نغمها الهمس... يسري
بداخلي دفنا وأمنا... أضع القطعة داخل جيبي... تصطدم
أصابعي بورقة الخريف الحمراء... تزداد حمرتها كلما أطلت
التحديق... أحسها تطالبني بشيء ما... شيء لا أتبينه...
يعيش معي... يكبلني... يخنقني أحيانا... أرفضه... يرتد
إلي شهياً كالحمم... كالغيب الحلم... يرتجف له صدى
أعماقي... ينبثق الفرح مني... يكاد يفر... أغطيه ببرنسي...
أرجعه حيث كان... أجدني أمام البيت... أدخله... أصل الغرفة
متعبا... أرتمي على السرير... أغمض عيني... أحكم البرنس
حولي... يتسرب الدفء إلى الفقايع بأعماقي... يفتته...
أطل من فتحة البرنس... تلتقي عيناها بعينه لون مساء
خريف ممطر... تخترقني ابتسامته... تتحدى الصورة
لتصلني حية نابضة... تهتز مشاعري وتضطرب... لست
وحدي في هذا الخريف الحلم... إنه معي... يعاودني فرحي
الطفولي وأنا أتعلق بريقته أمام أعين الصغار... أتشم
رائحة الطيب والمسك ممزوجة بأريج قهوة عربية «مزهرة»...
«... تفضل يا ولدي... إنه كان يحب هذه القهوة في مثل هذه
الأماسي...» شربت ما في الفنجان دفعة واحدة... قمت
إلى مكتبتي... بعثرت بعض الأوراق... مزقت بياضها...
سلبته الصمت... أسكنته محاضرتي القادمة بصمتها...
رجلي تؤلمني... قلبي يأبى سحب مداده... المطر يقرع
نافذتي... يهيني الخصب القادم... يستيقظ الطفل في عني
ثائرا... يطالبني بالتآج... تاجه الملكي... إبتسم له... يبتسم
لي... أضع يده الصغيرة بين كفي القويتين... أسكب فيه
حلما طالما رنا إليه... أدثره ببرنسي الداكن... أبثه دفنا
افتقدته منذ زمن بعيد... أعود إلى أوراقي... أرسم الغد
الأخضر للطفل المهزوم في...

ربيعة الفرشيشي

لم

تكن رحلة الحافلة التي
استقلتها طويلة ولكنها
كانت كافية لأن تجعلها
ترحل رحلتها العادية مع الشرود
والذهول. إستلقت على أحد
الكراسي الذي تحصّلت عليه
بسهولة غير معتادة.. أرخت عليه
جسدها المتعب وسرعان ما
ابتعدت بوجهها الشاحب عما

الحرارة

يدور داخل الحافلة وخارجها. لم يفرها شيء بالخروج من
مملكة الشرود والذهول التي نصبت نفسها ملكة عليها في
تلك اللحظات. الملابس الصيفية بألوانها المختلفة تملأ المحلات
على جانبي الطريق التي تشقّها الحافلة.. أدوات زينة
متنوعة قد تستقطب اهتمام من هنّ في مثل سنّها..
مرطبات كثيرة معروضة في تنسيق محكم.. صوت مغنّ
ينبعث من مكان ما كانت فيما مضى تطرب لسماعه، وأناس
كثيرون تعجب حين تراهم بهذه البساطة وهذه السذاجة
التي يتعاملون بها مع الحياة.. كلّ هذه الأشياء وغيرها لم
تحفل بها ولم تكن قادرة على إثارتها. لقد ابتلعت سنواتها
الأخيرة كلّ ذكرياتها المرحّة كما ابتلعت إحساسها الزائف
بكلّ ما تراه الآن ولا تطرب له. ففرت إلى داخلها تبحث عن
ضحكاتها طفلة فلم تجد سوى ذاكرة مهمومة ومشلولة لا
تختزل داخلها سواه «...» فهو الحقيقة الوحيدة التي دامت
معهما ما يزيد على الست سنوات. كانت تنسكب في عينيه
آلام الكادحين جميعا. وكانت عواطفها تجاهه تحديا صارخا

لذاتها الانانية ؛ لأجل هذا اختزلته في ذاكرتها بصمت. ومازالت إلى اليوم تفكر فيه بجنون يتجاوزها. أمّا ما عدا ذلك فكل شيء بداخلها يتردد صداه في أعماق النسيان.

حاولت أن ترتب أحداث هذا اليوم الذي أوشك على النهاية معللة نفسها باكتشاف شيء غير عادي قد يكون حدث دون أن تتفطن إليه ولكنها فشلت. لم يكن ما حدث يختلف عما يحدث في الأيام المملة الرتيبة. ولم يكن قادرا على تفسير قيود الروتين الذي يغتال أي شيء قد يوحى بالحياة. كل ما حدث كان يلحق هذا اليوم بغيره من الأيام القاحلة. وصل بها شرودها إلى يقينها الوحيد... إلى اقتناعها بكآبة الدنيا وحقارة الحياة، كانت تشفق على نفسها من يقينها ذلك، وفي نفس الوقت لم تكن تجد للتحرر منه سبيلا. كانت كل الأصوات المنبعثة من داخل الحافلة المرهقة ومن خارجها تتكسر وتتلشى قبل أن تصلها... إلى أن أفاقت على صوت استطاع أن يخترق سمعها « لقد وصلت الحافلة ، ألا تريدن النزول ؟ ».

ابتسمت لصديقتها صاحبة الصوت. حاولت بنفس الجهد الذي ابتسمت به أن تقول لها شيئا، لكن الكلمات ضاعت بداخلها فنزلت بصمت. ثرثرت صديقتها كثيرا ولكنها لما ينست من أن تقتلع من أعماقها ضحكة كما كانت تفعل دائما تركتها للريح القوية تتلاعب بخصلات شعرها بإصرار شديد... واصلت هي سيرها بالاتجاه المعتاد وفي وقت قصير وصلت.

الغرفة صامتة جامدة لا توحى بشيء. تفتقد للدافء الذي كانت تبحث عنه. دخلتها فلم يرجل عنها احساسها بالضجر. ولم تكن راغبة في الدخول ولكنها دخلت وهي لا تدري إن كانت ليلتها تلك ستملؤها أمنا أم خوفا. لا شيء يدعوها إلى أن تتمشى بأرض الغرفة قليلا، لذلك اندست في فراشها. بحركة لا شعورية اثبتت بصرها في كل محتويات

الغرفة. وبغم فاغر بحثت فيها عما يخرجها من إطارها المعبود. وقعت عينها على كتاب كان مهملا طيلة سنوات. ولكنها أفاقت في المدّة الأخيرة على العمق الذي تحمله الصّورة المرسومة على غلافه. اهتمت به وطالعت واحتمل مكانة كبيرة في الغرفة تميزه عن بقية الأشياء الأخرى هناك والتي لا يخلو أغلبها من التفاهة شيء آخر حرك عواطفها، ربّما هو مضحك. إنّها تلك الدّمية البلاستيكية الصّغيرة التي اندفعت نحوها بشيء من العاطفة. شيء ما شدّها إليها فتعوّدت عليها، وهي بلا شك ستفقدّها عندما تتسلّمها صاحبته. ستقسو عليها هذه الأخيرة عندما تقدم على ذلك. أسرت بذلك إلى صديق لها فضحك منها كعادته دائما عندما تسرّ له بأشائها التي تبدو له غريبة. لم يكن قادرا على فهمها ولكنها رغم ذلك تعوّدت عليه هو أيضا وأدمنت على صداقته. هكذا غطّت الدّمية والكتاب كلّ ما في الغرفة. لقد ابتلعا حتى تلك الأجساد الكثيرة - من بين زميلاتها في المبيت الجامعي - التي غالبا ما تملأ الغرفة بدون رغبة منها وتجبرها على الاستمتاع المرير بأحاديثها. لقد شاهدها تلك اللّيلة مع أجساد أخرى كثيرة وقد تسمرت ببلاهة أمام التلفزيون. تصفّق بانبهار لجسد مادونا العاري. ورفضت بشدّة أن تسمح لشقّ آخر من المجتمعات في قاعة التّلغزة بأن يدير الزر لمشاهدة الأنباء في القناة التونسية، أمّا هي فقد تركت ليلتها عراء مادونا يتصارع مع حماس أطفال الحجارة وشطحات الدّولار وجوع أثيوبيا و... وانسحبت في صمت.

لا شيء إذن في الغرفة سوى دمية وكتاب وفراش يرتخي فوقه جسدها النحيل. باضطراب ما بداخلها أمسكت بيد مرتعشة قلمها الذي أخذ يراود إحدى هذه الورقات العذراء الكثيرة أمامها عن نفسها. كانت تريد أن تكتب عن أشياء كثيرة تختلط في ذهنها في بلبلّة ودون ترتيب. كانت عملية عسيرة تواجهها كلّ ليلة. وانتهت كعهدها بها دائما. اغتصب القلم الورقة وكان المولود كلاما حراما. أخفته مع

سابقه باحتشام شديد وبخوف أشدّ منه. كان مدادا أسود ويخفي بداخله ذلك الذي تختزله في ذاكرتها ويرتجّ في أعماق صمتها. بدأت تشعر بجدران الغرفة الشوكية تقترب منها شيئاً فشيئاً حتى أطبقت على جسدها النحيل الهش وأدمته. لم تجد من حжим تنضوي تحته وتضمّد به جراحها التي أحدثتها لها الجدران الشوكية سوى تلك الملاء البيضاء. كانت كلّ الأجساد الممتلئة والرؤوس الكبيرة الفارغة تنام في سذاجة مفرطة. وكانت وحدها تواجه تهشيم جسدها. غطته بتلك الملاء البيضاء كلون الكفن، سيكون فراشها كالقبر وسيكون لأحلامها طعم الموت، هذا ما أوحاه إليها بياض الملاء.

أجسام كثيرة ممزّقة ، رؤوس محطّمة ودم كثير يغطّي المكان. صراخ جنازتي يختلط بصمتها الحجري، عواء ذئاب كثيرة قد تكون بشرية. وهي وسط ذلك كلّها خاوية من ذاتها ومن التفكير، لا تشعر بغير ثقل شديد في رأسها حتى أن جسدها لم يقدر على حمله. لهذا كانت تترنّح في جلستها تلك وكانت رغم ذلك قادرة على التحديق بعيشين لم يتعبا أبداً. فرأت عن بعد آدميين كثيرين قادمين في بطء ظاهر فتقفّ بهم ريح قويّة وتودي بهم إلى الانكسار على إسمنت ذلك المكان، فيتحوّلون إلى دم وحطام. طفل صغير ينتقل برغبة ظاهرة وملل خفي من بين السيارات الفخمة الراسية أمام الضوء الأحمر، يبدأ في مسح بلورها بخرقه بالية فيصده أصحابها خوفاً على تلك القطعة النقدية التي ينتظرها الطفل من أن تتعود على جيوب أمثاله الفقراء... تتكرّر محاولات الطفل. لم يدخل جيبه مليم واحد وفجأة تقذف به الريح فينكسر على الإسمنت الصلب. من بعيد كانت امرأة قادمة ولكن بملل ظاهر، كانت أرملة وأماً لأطفال كثيرين تستيقظ منذ الفجر، تخرج بلا أمل وتبحث في يأس فاجع عن عمل يمكنها من أن تعيش يوماً واحداً مع أطفالها وقد امتلأت بطونهم. ابتسمت لمجرّد الحلم. ولكن الريح تأتي

بسرعة مذهلة تقذف بها على الإسمنت فتتحول إلى دم وأشلاء. القادم الثالث كان أحد المعروفين بجنونهم. رآته وهو قادم ولم تسمعه ينطق بغير الحكمة التي لم تسمعها عند غيره من العقلاء. لم يسمعه أحد غيرها. لم تمهله الرياح. تحطم فساح دمه على أرضية ذلك المكان...

شيء عميق لم تدركه حركتها من مكانها بخفة غير معهودة وتوجهت تحاول أن تجد لقدميها طريقا وسط ذلك الركام من الدم والأشلاء والرؤوس المهشمة. مدت يدها تحاول ترميم تلك الأجساد، غمست يديها في الدم، اضطبقتا وفجأة استيقظت.

نظرت حولها فوجدت الغرفة كعهدها بها قبل نومها ذاك الذي لم يكن سوى استراحة مؤلمة لذاكرة مشلولة. انجلت عتمة الليل وتسلسل النور إلى الغرفة. وقعت عيناها على صديققتها التي تنام معها في نفس المكان فتمتمت في نفاق عارٍ: « صباح الخير ». ردت عليها بنفس الكلمات. وساد صمت لم يسعه فضاء الغرفة الضيق. لقد أخذ ينمو بينهما منذ مدة كغابة متوحشة. ابتسمت وهي تلحظ هذه البرودة وهذا الفتور الذي يصيب علاقاتها بالأشخاص والأشياء يعود من جديد. تعلمت في الفراش. أحست بالنعاس مازال يجرح عينيها ولكن...

أخذت تستعد للخروج من سجنها للدخول إلى سجن آخر أكبر وتناقضاته أرحب. خرجت وهي تفكر في حلمها الليلي وتنظر إلى يديها بعدما لم تستطع أن تمحو منهما حمرة الدم. هكذا خرجت ومعها حلمها بأن ترمم تلك الأجساد. انتهى الليل واستمر الحلم معها يرافقها وهي في قمة وعيها واستمرت هي معه تعيشه ملء شرودها. لم تعد تفكر في شيء آخر، كل أحلامها تضاءلت واحتواها هذا الحلم الكبير غير المرتقب. اقتحمها في توقيت غير مقصود فاستسلمت له تحت وطأة سيطرته على لحظتها تلك.

لم تستطع أن تتخلّص منه وهي ترى وجه الطّفْل والمرأة والمجنون وغيرها من الوجوه التي قذفت بها الرّيح في كلّ تلك الوجوه الصّفر. واشتمت رائحة الامهم في كلّ الأجساد المتعبة في الطّريق، في الحافلة وفي كلّ ازدحام لا ترى فيه أناقة مفرطة وحقائب ديبلوماسية وأحذية لماعة لم يلوّثها غبار الطّريق وغيرها من مظاهر التّلقيع ضدّ الانكسار على الإسمنت الصلب.

استمرّت في سيرها، يرافقها حلم يقظتها ذاك، تحديق في الأشياء الكبيرة والصّغيرة معها، تتعامل معها بعمق آخر مختلف. في طريقها تسمرّت أمام إحدى المكتبات وقد تلوّثت الكتب التي لفتت ذهولها بالدّماء التي لوّثت يديها. لم تكن تدري كم مضى من الزمن، لقد أسقطت الوقت من اهتماماتها. فجأة لمع أمام عينيها برق أضواء في نفسها كلّ زواياها المظلمة. انسحبت ومضت إلى غرفتها من جديد.

كانت الغرفة أكثر دفئاً وبدا كلّ شيء فيها أكثر هدوءاً واستسلاماً. وكانت هي أكثر جسارة وأكثر جرأة متجاوزة انكسارها. لم تكن كعادتها زاهدة في عمل أي شيء. أضواء النّور وتوجّهت إلى أوراقها الكثيرة المكّدة دون تنظيم. حررت كلّ ذلك الكلام الحرام. انعكس عليه نور الغرفة فقرّرت أن لا ترجعه إلى مخبئه المظلم ثانية، عندئذ قرّرت أن تطوّر العلاقة بين أقلامها وأوراقها. ستقيم بينها عرساً دائماً وستمنع الاغتصاب من الحدوث مرّة أخرى. سيكون العرس متعباً وشاقاً ومرهقاً. ولكن مواليده ستكون كثيرة. تختصر عن طريقها المسافة الشاسعة بين إحساسها بكتابة الحياة وحبّها لها. ترسم بها السؤال الكبير الذي يحوي الألم والحلم. بهذا العرس سستمتع بوحدتها وتمتلئ بذاتها أكثر... هكذا قرّرت أن تكون...

روضة الشتوي

مصطفى الشريف

تابع الفصل المنشور
بالعدد 93 جويلية/
سبتمبر 1991

أولاد = الحلم

هو زمن الحلم عند
الكاتبة فيه تستحضر
حبيبها وتغادر معه
الأرض إلى جنته هناك في
السماء السرمد فتتحد «بنوره»
لذلك وكان الليل زمن «التوحد»
والإسراء والتطهر بنور الحبيب
والتعري له ونزع الأقنعة
بحضرتها :

الليل

البحث عن الخلاص

«يامن لا يأتيني وإلا حين تلتقيني أتعاب النهار

ساعات التوحد بالدجى <http://Archivebeta>

فينشق الليل عن برقه

ويومض في عيني نورا مسكرا منعشا

فأستسلم لسبائكك الرائعة»

ص 12

إنَّ الليل هنا هو الزمن النفسي للكاتبة زمن السمر
والجنة

« تغزوني تطهرني

وقتها

أنهض نافضة كفني وأقنعتني

وأرمني الأرض ورائي كرة خاوية بدونك

وحين أرحل عنها إلى عالمي الساحر بك
أغلق عليك بحرص وخوف أبواب الجنة»

ص 14

وهكذا يستحيل ليل الكاتبة إلى كرنفال من الفرح
واللذة والاشتواء مهرجان من « الأنغام والألوان والأنوار»
انه بكلمة واحدة ليل من ليالي ألف ليلة :

«ويستحيل الليل نافورة عسل

ومهرجان ألوان وأنوار وأنغام

ويستحيل الليل أحلى حكايات شهرزاد »

ص 14

لذلك كان الليل محطة استراحة بالنسبة اليه ينسيها
مشاكلها ويحررها من همومها ويبعث الحرارة في جسدها :

«ما عدت امرأة مكسورة تحت آلاف المشاكل

ما عدت امرأة محنطة القلب

ناقمة على كل الرجال

ما عاد جسدي تمثال ثلج

ولا الليل قبر أيام الأتاع»

ص 20

ونقف في قطعة قصيرة بعنوان «أنت والليل» ص 8
على مغازلة طريفة بين حبيبين اذ جاء الحبيب يمنع النوم
عن حبيبته ويبعث فيها «الشهوة» و« الأفراح المحرمة في
الدنيا» لكن ذلك كان في الحقيقة خيالا في خيال و« حلما من
أحلام الليل» لا أكثر ولا أقل :

« ألا تتركني أنام !؟
تأتي.. توقظ أنامك في خيالي شهوتي
تفتح باب أحلامي، وتزرع الأضواء
والأفراح المحرمة في الدنيا
ورغم ذلك
تبقى علاقتي بك سرّاً وحلماً منه أحلام الليل
وجنونا يمارس في الخفاء »

ص 8

ان الحلم هنا لا يعدو ان يكون هروباً من الواقع الذي
هو نقيضه بالأساس فما هذا الحب الحسيّ إلا مجرد حلم من
الأحلام لأنه محرم في دنيا الواقع تقول الكاتبة تصف - في
الحلم - لحظة شبقية مع الحبيب :

«وحين أقبلت عليّ حرارة أنفاسك أضاءت عيناك
الدافئتان ركني المدلهم

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

..... وكانت الكلمات ارتعاشات وتر
واستسلمت وقتها - ككل مرة تأتيني - لأصابع النشوة
والفرحة النادرة »

ص 9

كم مرة استعاضت الكاتبة الحقيقة بالخيال فاستحضرت
الحبيب للمثول بين يديها عن طريق الذكرى :

«أدهشني حضورك الصاعق في ضباب وعيي

وقتها، هاجمتني ذكراك »

ص 16

أو في الخيال :

« تأتي .. توقظ أناملك في خيالي شهوتي »

ص 8

أو باستدعائه في الحلم :

« وفي وحدتي وسكين الشوق في صدري

أسرع أفتح لك أبواب ليلي

وأسكت ألمي

وأضيء لك أنوار السرية الملوثة

وأعلق لك أجمل زينات الأعياد

وأعود طفلة تتعري من كل أردية المجاملات والنفاق »

ص 21

ولكن ... من يكون هذا الحبيب ؟ إنه ملك منزله يدخل
على الحبيبة ليلاً في هيئة نخلة عراجلتها من عسل مصفى
في صوته ارتعاشة حلوة فتظل ترضع من حنان ولا ترتوي :

« وفي وحدتي وسكين الشوق في صدري

أسرع أفتح لك أبواب ليلي

.....

أعود طفلة تركض نحوك

تفتح لك الأبواب، لتدخل ملكاً منزهاً

أعود طفلة

لا ترى غير وجهك القادم

وقامة النخل وعراجل العسل

ولا تسمع غير ارتعاشات صوتك

ولا ترتوي وتغمض عينيها

الأ وهي ترضع حنانك وتهدهدها ابتساماتك»

ص 21

أو هو ذلك الرجل الغريب القديس البرق المحرم القادم
من الأدغال البعيدة :

« فإليّ يا رجلاً محرماً

.....

يا رجلاً قادماً من الأدغال

لأريح فيها قدمي

وأرمي أثقالتي

.....

يا رجلاً غريباً اقتحم ذاكرتي عنيفاً باهراً

يدهشني أنني أرفع صوتي وأدعوك

للمحظة حباً وصفاء مقدسة »

(رسالة 4 غريب : تعال نتطهر حباً) ص 16

والكاتبة تضيف على الحبيب صورة نورانية ملائكية لا
وجود لها في الواقع الملموس. ان حبيبها ليس من طين وماء
وانما هو «كالنسمة المنعشة» أو «كالبرق الخاطف» :

«يا من يأتييني كالنسمة المنعشة في حر الصيف

ناعمة لطيفة

لا ترى ولا تلمس

.....

ولا تترك غير بقايا الشذى

.....

أو كالبرق الخاطف

يجيء باهرا صاعقا وسريع الهروب»

« رسالة 4 نورك » ص 12

اني قادر على تحويل الطبيعة وفق مشيئته فتبتهج
لحضرته العواصف والرعود وحضوره يبعث في الحبيبة
انتشاء روحيا من طبيعة صوفية :

« أنت

يا من كان الربيع ينبت تحت قدميك

في عز الشتاء !

« أنت

يا من كانت العاصفة تتحوّل معك

إلى حفل صاخب

يا من كانت النشوة تشدو دوما في حضنك

فتحرق أصابعي بين يديك شوقا

وتضيئ شموعا

ويضوع حريقها بخورا وندا وسحرا

.....

« أنت !

يا من كنت !

كيف جعلتك سيّدا . »

ص 35

والحبيب كذلك هو «قهوة الصباح» و «مشرق الشمس»

و «دفقة النسيم المنعش المحيي» وحضوره يضيء المكان

وكلماته «ارتعاشات وتر» تنبعث منها «أعذب الألحان» .

وأنت قهوة الصباح الساخنة التي لا غنى عنها
وأنت مشرق الشمس
ودفقة النسيم المنعش المحيي

.....
وحين أقبلت عليّ حرارة أنفاسك، أضاءت عيناك
الدافئتان ركني المدلهم

..... كانت الكلمات ارتعاشات وتر
كانت قد انبعثت في مكتبي الساكن أعذب الألحان
وانكعش بيتهوفن وموزار وشوبان
وبعدك بقيت أنفاس موسيقى دافئة مسمورة
تتسلل من المكان
واستسلمت وقتها ككل مرة تأتيني - لأصابع النشوة
والفرحة النادرة» <http://Archivebeta.Sak>

«أنت والذكرى» ص 21

انه الحبيب.. سبب سعادتها... به ستظل تحيا فهو الذي
علّمها أن تحبّ وأطلعها على مدن السحر والجمال وأهداها
«أذكي العطور» وجعلها تحلم :

«شكرا يا رجلا علّمني أن أحبّ في أصعب الأزمنة

.....
فقد منحني بطاقة سفر مجانية لأجمل المدن وأكثرها
سحرا

وأهديتني أذكي العطور لتلغي كل عفن المدينة
وترفعني زمننا ما عن وحل طريقنا

شكرا، فبك تعلمت أن أنام بعمق وأحلم بعد أن كنت
أظن أننا فقدنا الى الأبد راحة النوم وحرية الأحلام .»

ص 10

وحين يأتي الحبيب تهلل لمقدمه الشمس وتدق الطبول
وتنتصب الأفراح انها صورة كرنفالية تشبه الأعياد
والأعراس :

« كانت خطواتك وحدها : مشرق شمس

ودقات طبول وأنغام مزامير أحلى أعياد الأطفال

خطواتك فقط : كانت موسم فرحة قادمة »

ص 9

ولكنه يظل مع ذلك « غريبا » لأنه آت من « قرارة الحلم »
ومن عمق الخيال :

« يا غريبا

يا غريبا تعودته حتى ألفته

وألفته حتى أدمنته

<http://Archivebeta.Sakhrat.com>

يا غريبا

تصفعني به الشمس كل نهار

ويقذفه الليل في قراره حلمي

كيف تسكن ليلى ونهاري ؟

وتحكم علي الأسوار ؟ ولا تدري !

« أنت والنهار » ص 5

إن هذا الحبيب النوراني هو من صنع خيال الكاتبة

غايته أن يبعث فيها نشوة الفن ويدفعها الى الكتابة :

« تأتي ، تضيف قطعة سكر في مرارة قهوتي

وتنثرني مطر نشوة تحت ألوان قوس قزح

وتبعث الرعدة المباركة في قلبي

فتنهمر معك كل ألوان الخلق الجديد لكياني

ثم، أطوي صفحاتي. ولا تدري ! »

ص 7

انها خلقت للضرورة الفنية ليس الا لأنها عن طريق
الكتابة يمكن أن تجعل الحلم حقيقة فتخلق واقعها الخاص
وتعيد خلقه من جديد كما يحلو لها ... وقد يتفق أن تحضر
لها أثناء ذلك صورة المعشوق كما هي الواقع فتتألم من
صعوبة الوصول اليه لأن الحياء يمنعها ولأن الناس يسبغون
في الحياة بأقنعة تخفي حقيقة أمرهم - وما أكثر ما ندت
الكاتبة بهذه الأقنعة في هذه المجموعة أو في مجموعتها
القصصية السابقة (الطفلة انتحرت) - فلا يكون أمامها
حينئذ الا الاستنجاد بالحلم يخفف عنها الألم ويرفع فيها
الطفولة والبراءة :

« أتعلم ؟ أنك حين تودعني

بكل أدب وحياد

وتعضي الى مغيبك

وأخفض بصري وأسرع أدير ظهري

كطفلة بريئة خجول،

يأتيني الليل !

وفي وحدتي

أسرع أفتح لك أبواب ليلي
وأسكت ألمي
وأضيء لك أنوار السرى الملوّنة
وأعلّق لك أجمل زينات الأعياد
وأعود طفلة تتعرى من كل أردية المجاملات والنفاق»

ص 20

ثانيا : التحليق في العالم العلوي

السمة البارزة لهذه المجموعة شاعريتها المحلقة فما تكاد
الكاتبة تستحضر في الحلم حبيبها حتّى يقبل عليها (كالنسمة
المنعشة الناعمة) (لا ترى ولا تلمس) في هيئة (برق خاطف)
يشق الظلام ويفرقها في نوره فتطلع اليه بدورها نجمة
متألقة في ظلام الليل وسكونه وتتعرى له وهي ترتعش في
لحظات شبق روحانية وتستسلم له بعد أن تكون قد أسقطت
عنها أقنعتها الأرضية :

« يا من يأتيني كالنسمة المنعشة في حر الصيف

أو كالبرق الخاطف

يجيئ باهرا صاعقا وسريع الهروب

فينشق الليل عن برقه

ويومض في عيني نورا مسكرا منعشا

ويغرقني شلال نورك !

ويسري تيار الكهرباء في راعشا مدمرا

فأستسلم لسبائك الرائعة

تغزونني تطهرنني

وقتها

أنهض ناقضة كفني وأقنعتي
وأطلع إليك نجمة وحيدة التالق في الدجى والسكون
فيكون بك الرحيل «

ص 12

وفي مشهد ميثيولوجي شبيه بمشهد الإسراء والمعراج
كما تصفه كتب السيرة تغادر الحبيبة هذه الأرض وترميها
وراءها وتصعد الى جنة حبيبها السماوية فتلتهم بنوره
الطاهر الصافي :

« وأرمي الأرض وراني كرة خاوية بدونك
وأطلع اليك، دفق وجد راعش منير
..... وحين أرحل عنها الى عالمي الساحر بك
أغلق عليك بحر صم وخوف أبواب الجنة
ويلتحم النوراني طهرا وصفاء في جنة النسيان »

ص 14

ان الكاتبة باستخدامها الحلم الميثيولوجي قد حولت
« القضية » ان التغيير من الأرض الى السماء فأطعنا صورة
من صور (الفردوس المفقود) أو (الجنة الضائعة) كما كان
يفعل الرومانسيون/العرب الأوائل واستخدمت مثلهم فكرة
« التطهير » ومفهوم « المقدس » مقابل ما هو أرضي مدنس :

« تغزوني تطهرني »

وقتها

أنهض نافضة كفني وأقنعتي «

ص 14

وتقول في (رسالة الى غريب) ص16 جعلت لها عنوانا:
« تعال نتطهر حباً » :

« ها أنا ذي
أموت شوقا الى الوقوف بين يديك
في لحظة صدق وصفاء واعتراف

فصفاء النفس، لحظة حب صادقة فقط
قد ترفع الأوساخ عن الجراح
وتعيد لها الطهارة والقداسة

فإليّ يا رجلا محرّما !
فمهما تناسينا
تأتي أوقات عطش غامض
نحتاج فيها إلى لحظات تطهر أدراننا

يا رجلا غريبا اقتحم ذاكرتي عنيفا باهرا

أعفوك لتحرق أقنعتي

لأنصهر في نارك الشرسة ،
فعن طريق التطهير يتخلص الانسان من عفن المادة
وأدرانها ويسمو الى عالم القداسة والعطور. يقول الشابي
في قصيدته (صلوات في هكل الحب) :
« يا لها من طهارة تبعث التقديس »

ص 6

وجاء في القرآن الكريم : «ولهم فيها أزواج مطهرة
وهم فيها خالدون »
تقول الكاتبة :

«شكرا يا رجلا علمني أن أحبّ في أصعب الأزمنة

فقد منحنتني بطاقة سفر مجانية لأجمل المدن وأكثرها
سكراً

وأهديتني أذكى العطور لتلغي كل عفن المدينة
وترفعني زمناً ما عن وحل طريقنا »

ص 11

استخدمت الكاتبة اذن في هذه «الرسائل» المادة
الميثيولوجية بشحناتها الايحائية ومشاهدها العلوية خاصة
عند طرقها لموضوع الحب وعلاقة الرجل بالمرأة فاستحضرت
«روح» الحبيب وفي حب معه من عالم الأرض الى عالم
السماء طمعا في التطهر بنورهخ والارتفاع الى قداسته لكن
هذه الميثيولوجيا قد دفعت بالكاتبة الى شيء من السريالية
خاصة في (رسالة الى لص) بعنوان : « أعد اليّ جنوني » ص
23 وفيها تحاول التخلص من جاذبية الأرض والصعود الى
السماء لأنها من (نار) وغيرها من (تراب) وطين :

« يا سارق ناري ؟
ومخدّر جنوني

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

اترك بوابة عوالمى المغلقة تنفتح
فاعود أخترق النار والصخر والسموات

استيقظت فجأة !

وها ان جسدي ما زال يرف

وها هي الريح بدأت تعصف بالتراب وبالرماد

وها هي شرارات بدأت تطير

والجمر بدأ يزهر بأجنحة الرياح

فانزع عنّي كفني !

قد صدنت وانكسرت سلسلة الحديد

التي ربطتني بالتراب

انزع عني كفني
قبل أن يحملك معي الحريق
فانا به أكون
وأنت به تموت ..

ان الحب في هذه «الرسائل» هو حبٌ ميثولوجي ذو بعد أسطوري يتلهم شوقا الى (الجنة الضائعة) للرجوع الى جوهره الأصلي قبل انشطاره الى ذكر وأنثى (7). يقول الأستاذ فؤاد الغرغوري : «يتفق الرومنطيقيون في النظر الى الحب نظرة تصعيدية غيبية... فالحب رغم كونه علاقة بشرية وأرضية في مظهره هو في أصله وجوهره قوة سماوية تنزل على الانسان كما ينزل الوحي على الأنبياء والرسل» فجبران «أثر أن يجسم الحب في صورة اله ينزل الى الأرض بين الفينة والأخرى فقال: «...ذلك الحب ذلك الاله قد هبط في تلك الساعة الهادئة» (8) وينقل الأستاذ الغرغوري بيتين للشابي في هذا المعنى هما قوله :

«الحب شعلة نور ساهر هبطت

من السماء فكانت ساطع الفلق

الحب روح الاهي مجتحة

أيامه بضياء الفجر والشفق»

تقول بنت البحر عن الحب في قصتها (الطفلة انتحرت) من مجموعتها القصصية التي تحمل نفس العنوان: كل شيء في سماء المثل «يجب أن يكون عاليا عاليا والحب لا يتردى الى القاع يبقى نارا متوهجة في السماء» ص 9 وتقول كذلك في نفس القصة : «كانت الطفلة الساذجة الحاملة تنبض حباً محرقاً... لا تريد السقوط الى أرض من طين» ص 10 وتخاطب الرجل قائلة : «... فضاع وجه الطفلة

ضاع تحت قناع المرأة التي أرادت... ضاع تحت قناع المساحيق والأصباغ... ليصبح خدرا مستمرا ... ضاعت الطفلة وانتحرت... لتزهو أنت بنجاحك وبغفوك بالمرأة الشراب المعتق المسكر وبالفراش الدافئ الوردى ولتشرب نخب موت الطفلة التي تخاف أن تدمرك» ص 11.

ويمكن أن نذكر في هذا الصدد نصّ (رسالة الى الموج) بعنوان «تكسر على جسد الأنثى» ص 27 من مجموعة «الرسائل» إذ تطلب الكاتبة من أمواج البحر العاتية أن تمحق جسد الأنثى وتحوله الى حديد صلب لأنه كما تقول سبب همومها وقيدها منذ أقدم العصور إذ لم يجعل منها غير «مطية ذلولا» لفراش الرجل وعندما (يجمد شيطان الجسد) فيها تستطيع أنذاك أن «تنهض» و «تطير الى أفاق السماء» بحثا عن الحرية ولكن أيضا عن الحب الخالص من دنس المادة والجس وهي صورة سريالية تترجم بوضوح عن مفهوم الحب الميثولوجي كما رأيناه عند الرومانسيين من أمثال الشابي وجبران وغيرهما. وبطبيعة الحال فنحن لا نسوق هذه الشواهد من باب إجراء مقارنة بين هؤلاء والكاتبة بنت البحر فتلك المقارنة قد تبدو غير جائزة لعدة أسباب وانما نقصد من ذلك ارجاع محاولتها في هذه المجموعة الى النسق الرومانسي العام. تقول في (رسالة الى الموج : تكسر على جسد الأنثى) :

«يا موج البحر الغاضب العاتي !

اترك الرمال !

وتكسر على جسد الأنثى

حوّله صخرا ... صنما !

محلول الشعر ، نافر الثديين

مثقلا من أيام حواء أتعابا وقيودا وحبالا

مثقلا من أيام الجنة أثاما وخطايا

لينا ومعطرًا،
هل يصلح إلا أن يكون مطيةً ذلولا
وفراشا لسيدي الدائم الخالد آدم ؟
يا موج البحر الهادر !
تحت أقدامك جسدي الهارب اليك
يسجنني يعرقل خطواتي
يمتصّ - ليحيا - دمائي،
تقدم ! امحق عطره !

وكسرَ نتوءاته وامحق رباه !
واخذه واضحا صلبا حديدا
اليك، قويا قادرا على أن يخرق مداك

لعلك تقدر أن تجعدَ شيطانَ الجسد
وتحوّله تمثالا ضحوكا مثلجا على الدوام

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

فانهض وقتها
خفيفة كنسمة
وأركبك حلما أو وهما أو حقا ساطعا
وأطير الى أفاق السماء
لأرسو
على ضفاف المستقبل ..

هذا الخيال (الجنح وهذا التحليق في (أفاق السماء)
يعبر عن احساس شقي وحاد بالهوة السحيقة والقرار
العميق. ان تحليق الكاتبة في الأجواء العالية ليس الأهروبا
من (أرض الطين) : « كانت الطفلة الساذجة الحاملة تنبض
حباً محرقاً... لا تريد السقوط الى أرض من طين » (الطفلة

انتحرت ص 10) وتقول في (رسالة الى لص) ص 26.

« قد صدئت وانكسرت سلسلة الحديد

التي تربطني بالتراب»

وتقول في (رسالة الى نورك) ص 14 مودعة في حسرة

حبيبها السماوي :

«و حين يطلع النهار

وتطفئ أنوارك

وأنزل ألبس كفني وأقنعني

ونعود نمشي - كالات ميتة - على التراب»

وللكاتبة قصة أخرى في هذا المعنى من مجموعتها

(الطفلة انتحرت) بعنوان «بدون وجه» ص 43 تحكي فيها

عن امرأة تنزل عن وجهها القناع الذي ألبسه اياها المجتمع

وتغوص في أعماق ذاتها الجامدة المشلولة فيهلها أنها لا

شيء إلا تراب ووحل عندئذ تستيقظ فيها الطفلة الساكنة

في أعماقها فتتمزق الحبال القديمة الممتدة من مغاور التاريخ

والملتفة حولها تقيدها الى كرسي جدودها الحديدي و «تحطم

الأحجار والقشرة الأرضية العقيمة» كما تقول ص 48.

وتقول في (رسالة الى الليل) ص 66

« وحدي

أحتمل وحل أرض الطين

ومظلمة السواد اللانهائي على رأسي»

وفي حين كان الليل «مهرجان ألوان وأنوار» فإن

النهار عكس ذلك تماما لأنه في نظر الكاتبة زمن الموت

والخراب والشوك زمن الأرض والتراب والحبيب ليس من

تراب وانما هو من نور والنور ينطفئ (حين يقبل الصباح) و

(حين يطلع النهار) :

« وحين يقبل الصباح

.....

تسكت النسمة العبقية

ويهرب الحب والشوق الصاعق في عينيك
وحين يطلع النهار
وتطفأ أنوارك
وأنزل ألبس كفني وأقنعتي
ونعود نمشي - كآلات ميتة - على التراب

وتلتقي عيناك بك ... تبحتان عن برقك...
ولكن ...

ضوء الشمس يستحيل نار جهنم
والسماء خلاء وعراء
والأرض تتحول صخوراً مدببة وحصى وشوكاً
وصحاري شاسعة مريية
وتبقى أنت !
نخلة شامخة مزغبة البعد في أفاق السماء ،

(ص 14-15)

وتقول في (رسالة الى الموت) بعنوان : « حين يدق
نافذتي النهار » ص 32

« حين يدق نافذتي النهار ،
ينسحب ليلى الخضل الوريق
يغلق دواوين أشعاره

ويضع في حقيبته تفاحة الحياة
ويودعني ، ويمضي بعيداً !
حين يدق نافذتي النهار
تأتيني أيها الموت

لابسا جلبابك الأسود

.....

وعلى شفتيك المحروقتين :

- صباح الخير ! يا أنية الليل !

.....

تشق أيها الموت جمجمتي

.....

فأسير بصمت في قطيعك

الى أن ... يأتي المساء

وقتها

تطلق عليك الرصاص نجوم ليلي

.....

وقتها

تصفو الطريق وتخلو
ويفتح الفضاء عوالمه الرحبية

فأنهض، <http://Archivebeta.Sakhril.com>

الى ليلي الوضيء الجديد »

وتقول في (رسالة الى دمة) ص 37

« ... والصباح يسلط أضواءه

فسد طعم كل الأشياء

.....

واذا هو الحصار !

فأين المفر ؟!

وعلى هذا النحو تنتقل الكاتبة بين «أقاليم النهار
والليل» متبرمة بالاولى هاتفة مهللة بالثانية لأن الليل هو
زمن تحررها من الواقع المر البغيض زمن الحلم والتحليق

في الأجواء العالية فيه تتحوّل الى طفلة بريئة حاملة تتعرى
لحبيبها بدون قناع، تقول في (رسالة الى نورك) ص 15 :

«وكفريق يبحث عن قشة للنجاة

أسرع، أتسلق عينيك وأبحث فيهما عن بقايا مهرجان
المساء

ويبحث نهمي اليك عنك

وتهفو نفسي ... الى أن تراك

كما في الليل في عالمي الرافض الأقنعة »

أمّا النهار فهو زمن الحقيقة الساطعة كيفما تتبدّى في
الواقع المكشوف دون زيف أو مراوغة تراه أمامها وجهها لوجه
لا مجال لنكرانه ولكن لا مجال لمواجهة لأنها اختارت
الهروب وسيلة للخلاص.

والنزول الى العالم السفلي عالم الطين والتراب
يذكّرنا مرّة أخرى بقول الشابي مخاطباً «صميم الحياة» في
قصيدته الأشواق الثّانية :

«وضياء يعانق العالم الرحب ويسري في كل خاف وباد

وانقضى الفجر... فأنحدرت من الأفق تراباً الى صميم الوادي»

واذا كان (ضوء الشمس يستحيل نار جهنم) كما تقول
بنت البحر فهذا ما عناء الشابي في قوله (الكون فلذة من
جحيم) في قصيدته «يا رفيقي»

هكذا نرى أن مجموعة (رسائل لا يحملها البريد) تنهل
من ينابيع الرومانسية العربية فتعيد مضامينها وتعبر عن
رؤاها.

- يتبع -

الناصر التومي

لدخل

غرفة المكتبة مهموما
مغلقا الباب من
الداخل، وارتقى على
أحد الكراسي، ولم يستقر به
طويلا فسرعان ما نهض وجلس
وراء مكتبه متبرما عاجزا عن
التركيز في أي شيء، لا يكاد
يرفع بصره على الأرض، وفجأة
انتفض على طرق على الباب

الحق

وصوت زوجته قائلة :

- افتح الباب ! لماذا أغلقتة ؟!

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

ولما لم يجب أعادت الطرق من جديد مردفة :

- ما الذي تفعله بنفسك يا رجل ؟

وتعالى صوت شقيقه الأوسط.

- أرجوك افتح ! لماذا تفكر بهذا المنطق ؟

وبصعوبة أجاب :

- اتركاني الآن.. راحتي في الانفراد بنفسي بعض
الوقت.

فكانت إجابة شقيقه :

- لن أبرح هذا المكان حتى أراك

وسكتت الحركة خارج غرفة المكتب.

سحب الصورة من جيب سترته وتفرس فيها مليا ثم وضعها برفق على المكتب، كانت صورة أبناء أشقائه الخمسة، أخذهم مساء ذلك اليوم وزوجته بسيارته للقيام بجولة في المنتزه. وكان ابتهاجه بهذا التجوال كبيرا، وهو يداعبهم ويلاعبهم وهم يحومون حوله كفراشات بينما السعادة قد ظهرت على ملامح زوجته فلم تستطع كتمانها، فانسابت في مضاحكتهم والتصاغر لهم مما افقدها رصانتها المعهودة.

وكان ابتهاجه لا يوصف، وهو يأخذ وزوجته صورة بينهم. تلك التي تستحضر في الحين. وعجز عن التحكم في مشاعره وتصرفاته فظهر خفيفا ضحوكا يقدم للأطفال ما يريدون قبل أن يطلبوه، وتارة يرفع هذا وطورا ذاك.

في طريق العودة استخفه الطرب الجارف، فاذا به يفتقد - تعلقه عند قيادته لسيارته افكان أن أخطأ تقدير المسافة بينه وبين شاحنة صدمته من الجانب الأيمن، نتج عنه إصابة كل الأطفال بجراح بسيطة.

كان التجهم باديا عليه وهو يودع الأطفال منازل آبائهم حتى أن أشقائه باتوا يخافون تأثير الصدمة عليه أكثر من خوفهم على ما أصاب أبناءهم.

لما أغلق غرفة المكتبة وراه شعر بان هاتفا من نفسه يوحى اليه بأن ما وقع له ذلك اليوم هو الانذار، أي إن عليه أن يبقى ما حيي كالعرجون القديم.

كانت زوجته تبتسم اليه من صورة الزواج الكبير التي تصدرت أعلى الحائط الأيسر، وقد أخذت من عشرين سنة، يومها كانت جوارحه طرية لا لأنه سيفتح بيتا ويتحمل مسؤولية زوجة فينعم بالاستقرار العائلي والاتزان العقلي، وإنما كان هدفه التلهي بتربية أبنائه.

وتوالى الأيام سريعة متلاحقة فسنوات عديدة لم تحس الزوجة فيها بأعراض الحمل فعرضها على أطباء أخصائيين

أجمعوا على أنها معافاة من كل عقم، وأن باستطاعتها الانجاب. وبفحصه هو وأجراء تحاليل له، ثبت أنه أعجز من أن يمنح أبناء من صلبه.

ونزل عليه الخبر نزول الصاعقة ارتجت له كامل أطرافه وأحس بأن الدماء انحبست في مفاصله التي شلت حركتها، وهو يتحامل على نفسه ويغادر العيادة منذ خمس عشرة سنة تذكر قوله أحد الرفاق مازحا معه بعد الزواج بزمان ليس بالطويل، بأن يسرع بانجاب بنات صلبه بعد إخفاقه في إبراز بنات أفكاره.

وهو يتحسس الكتب المبعثرة فوق مكتبه، وقعت يده على أحد عبقریات العقاد. وبعد التمعن مليا في صورة المؤلف وضعه جانبا، وألقى نظرة تغيير للمشاهد على رفوف المكتبة المنظمة بكل عناية حسب ترتيب ارتضاه.

لم يكن السيد حسن من الأدباء ولا من الصحافيين ولا هو من أسرة التدريس، فهو لم يتحصل من الشهادات التعليمية غير شهادة انتهاء الدراسة الإعدادية شعبة تجارة، أهله للانداب - من طرف شركة خاصة كمحتسب، وكان النجاح حليفه طيلة حياته المهنية، لجديته ونزاهته ودمائه أخلاقه، فكان محبوبا من طرف كل أقاربه ومعارفه على حد سواء، وهو مسالم الى حد كبير، ويتنازل عن حقه مهما كانت الظروف ببرود عجيب.

في بداية حياته المهنية ربط صداقة ببعض العصاميين من جيله ممن استهوتهم الكتابة الأدبية أو الصحفية وسحروا بعالمها وبدأوا يشقون طريقهم جنبا الى جنب مع زملائهم من أصحاب الشهادات الجامعية.

وأصاب السيد حسن عدوى المطالعة ومجالسة هذه النخبة، حتى صار لا يرى في مجالسهم إلا متأبطا مجموعة من الكتب الأدبية، والمجلات الاعلامية، والشرقية خاصة،

يقتني جلها حسب توجيهات هؤلاء الأصدقاء، هواة الأدب والصحافة، ويتابع السيد حسن كتاباتهم بالصحف والمجلات، مبهورا بقدرتهم على تحدي الجهل بمنافسة أصحاب الشهاد الجامعية، والتفوق عهليهم في عديد الأحيان.

وراودت السيد حسن فكرة محاكاة هؤلاء الاصدقاء بمحاولة كتابة بعض المقالات أو اللوحات القصصية فكان لا يخط بعض الأسطر حتى يمزق ما كتب، وينقطع عن المحاولات الأشهر العديدة وإذا أعاد الكرة كان مصيرها كغيرها بسلة المهملات.

ويخطر بباله عرض ما يخطه على أصدقائه، عساه يجد بينهم من يشجعه على التماسي في هذه المحاولات، ويوجهه إلى المنهج الصحيح، لكنه كان يفزع وهو في وحدته حينما يتخيل أن المطلع على مخطوطه سيتعسف معه في النقد، وقد عاين بنفسه كيف يرمون من ذاعت شهرتهم الأدبية كامل أنجاء العالم بالجهل والأسفاف، لذلك كان رافضا فكرة عرض محاولاته على أصدقائه لهذا السبب، إضافة لعدم استعداده أن يكون بينهم مجردا تلميذا فاشل.

وحتى بعد زواج السيد حسن المتأخر نسبيا بقي وفيا إلى المطالعة محافظا على صداقاته القديمة مع هواة الكتابة الأدبية والصحفية، وجعل من إحدى الغرف مكتبة مقتنيا لها مكتبا فخما وكرسيا وثيرا، وتفنن في ترصيف الكتب بحيث تزين الغرفة، ووشى الحيطان ببعض صور الأدباء من المعاصرين من الشرق والغرب.

واستؤنف الطرق من جديد، وصوت شقيقه الأصغر وهو يتوسل اليه بفتح الباب وتوالت المناشدات من زوجته وشقيقه الأوسط ، لكنه ما إن استمع الى عبارات الشقيقة الصغرى المستعطفة والمفعمة بالركة والحنان واجهاشها بالبكاء حتى فتح الباب محتضنا إياها، مهدئا من روعها،

قائلا وقلبه ينضج عطفًا عليها فهي أحب إخوته إليه :

- لا تزعجي يا أختاه فأنا بخير !

قالت أختها وهي تتفرس في وجهه وعينه خاصة
وكانها تريد إبراز ما يمكن داخله من أشجان وأحزان :

- روحي فدائك يا أخي وأبي وصديقي، لا تحزن،
فالأطفال بخير وهم يعوضون ولكنك لن تعوض.

وكان الأطفال قد وصلوا إلى الدار جميعًا وبإشارة من
الأخ الأوسط أسرعوا إلى السيد حسن والتصقوا به، وكان
الموقف محركًا لكوامنه الدفينة ففجرها مختنقا بعبراته.
وبعد أن احتضن كل الأطفال ودون أن يخاطب أحداً من
الكبار عاد إلى غرفة المكتبة وأغلق الباب وراءه بينما كانت
الزوجة متشائمة من تصرفاته هذه والتي ليست من عاداته
حتى في ظروف متشابهة.

وعاد السيد حسن يتفرس في الصورة التي أخذت له
مع الأطفال، وهيء إليه أن هناك متجاوزين على طرفي
نقيض يزيدان في اضطرابه.

<http://Archivebeta>

- هو الحرمان

- بل هو النصيب

- وأين العدل الإلهي

- أياك

- أبدا لا أقصد

- أياك ومعارضة المشيئة الكبرى

- نعم ولكنني كنت ولا أزال بشهادة كل أقاربي

ومعارفي مثالا للطيبة والصدق والنزاهة والرحمة ويضرب
بي المثل.

- وهل كانت كل هذه المزايا بمشيئتك فالذي حرمك من

الابداع والانجاب هو الذي جعلك على هذه الصورة المحببة إلى
الناس...

واحتد الحوار واختلط، وتعذر عليه مواصلة استقبال مضامينها وحججهما لتشويش غزا جهاز التقاطه ففضل تغيير المشهد عساه أن يسعف بصفاء نسبي فكانت أول لوحة تصطدم ببصره صورة أخذت له بين أصدقائه من هواة الأدب، فهذا (ص) الصحفي وهذا (ن) الكاتب القصصي - وذلك (ع) الشاعر وذلك (ج) المنشط الإذاعي والتلفزي.

كانت صورة تحمل همه وفشله بين رفاق قدرهم بأيديهم بينما لم يكن يستطيع أن يبدع شيئا لا مكتوبا ولا منطوقا لسبب غير مقنع بالنسبة إليه.

وهو لا يستطيع أن ينسى تاريخ التقاط هذه الصورة التي أخذت له بينهم حيث انساب الرفاق في محاورات في عالم الأدب والصحافة والفن، أبرز فيه الصحفي رسالة الصحافة الحق الهادفة وما تطرحه من إشكاليات وما تفجره من قضايا الرأي مضيئا وجوب تركيز الحرية كمناخ عام ليتمكن كل فنان من الوصول الى ذروة الإبداع الفني. أما الكاتب القصصي فكان متشائما كعادته من تحقيق هذه الحرية التي يخافها من في قلوبهم مرض لذلك دأب وزملاؤه من كتاب القصة على الاستنجاد بالرمزية في القضايا المصيرية المطروحة والتي وإن هي جزء من الإبداع فهي عائق للوصول إلى ذروته، أما الشاعر فكان أشد المتحمسين في هذه الجلسة متهما مشجعي شعر المدح في عصر غزو الفضاء بالغباء والانحطاط وقد صرخ يومها قائلا :

- القبر ولا المدح

كلما حاول السيد حسن التدخل انساب أحدهم في مدخل جديد غير تارك له الفرصة للتعليق أو الإضافة وقد يتلفظ ببعض العبارات التي لا تصل مسامعهم إلا همهمات لا معنى لها فلا يطالب بإعادة كلامه.

وتخيل إليه في ذلك اليوم أنه متطفل لا غير على هذه

الثلة التي لم تسمح له بالمجاسة إلا لحسن معشره، أما أن يكون مساهما في اثراء الحوار فهذا بعيد المنال لعدم توفر موهبة الكتابة فيه والفصاحة.

كان يتصيب عرقا وهو يحاول تبليغ معلومة ما خاصة عندما تسمح له الفرصة لذكر نكتة لا تضحك هؤلاء الرفاق، مع أنه كاد يسقط من الضحك وهي تحكى له، ولقد تظن بعد مدة أنه لا يحسن التبليغ، وقد يحاول ترصيف عباراته وأرائه قبل الاصداع بها، لكن ما أن يتلفظ ببعض العبارات حتى يفتقد ما رصعه منها فلا يجد له أثرا. وكذلك الشأن بالنسبة لنسيج أرائه فيظهر عليه الارتباك ويظطر الى إنهاء كلامه بسرعة، وهذا الحال يكون في المواضيع العادية البسيطة التي لا تتطلب فكرا وقادا، أما في المحاولات الفنية والأدبية وما يتخللها من تحاليل النظريات الفكرية فانه يكتفي بالتلفظ بعبارات قليلة ومبتورة المعاني، حتى إذا ما تظنن إلى اللخبطة اللفظية التي وقع فيها لازم الصمت وهو يغص بلعابه.

والسيد حسن لا يعرف للحسد سبيلا ويعتز بأصدقائه ولا يفتأ - كلما تجاذب أطراف الحديث مع غيرهم - ينوه بإبداعاتهم في عالم الأدب والصحافة متمنيا لهم التفوق. لكن ما أن يختلي بنفسه ويقارن حاله بحالهم حتى يستاء ويتهم ويتهم نفسه بالفشل والخيبة، معدا الجهد الذي يقوم به في المطالعة لكل أنواع الفنون الأدبية تقريبا، لا يقل عن جهد رفاقه المبدعين وكل ما في الأمر أن في رفاقه الجراءة على المحاولة والاصرار على تحقيق أهدافهم، بينما هو غير قادر على أتمام محاولات كتاباته، وإذا هيء له استيفائها مزقها بعد القراءة الأولى إضافة الى تخرجه من اطلاع أحدهم على بعض هذه المحاولات.

ولم يعرف كيف تجرأ مرة واحدة مطلعا الكاتب القصصي على مخطوط لا يتعدى طوله صفحة كراس عاذي،

كان مضمونه طرح قضية عبادة البقر من طرف مئات الملايين من مواطني الهند الشيء الذي جعل هذا البقر يتكاثر بصورة مهولة ويتجول في شوارع المدن على هواه، متسببا في تعطيل حركة المرور دون أن يتجرأ أحد على إبعاده، بينما أغلب الشعب الهندي جانح، وهو يستغرب من هذا الجهل في عصر الذرة، مقترحا على الحكومة الهندية نفث غبار هذه العبادة التي ساهمت في تخلفها وجوع شعبها.

وهو لا ينسى نظرة السيد (ن) إليه يومها والتي أربكته فأحس على إثرها وكأن الأرض زلزلت من تحته، وتضخم ارتبأكه وهو يضع الاسطر أسفل الجمل الواحدة بعد الأخرى مبينا بعض الأخطاء النحوية والصرفية والشكلية وضعف بناء الجمل. وبعد الاتيان على كامل الصفحة بالتشطيب والتنقيح والإصلاح، قام برسم علامة قاطع ومقطوع ضخمة على كامل الصفحة المخطوطة والتفت إليه قائلا :

- حتى ولو كان كل سطر كتبه سليما، فهذا المقال الصغير غير صالح للنشر لسبب واحد وهو مساسه بقداسة ديانة يتجمع حولها أكثر من ثمانية مليون نسمة، فلو كان المقال اعلاميا بحثا دون تعليق لهان الأمر، ولكنك تقترح على حكومة الهند بتقنين ديانة بوذا وذبح البقر المقدس وهذا غير مسموح به. ونصيحتي لك أن تبدأ بمواضيع بسيطة تطرح قضايا مجتمعنا هذا، ومالنا وبقر الهند المقدس...

وهي له أن رفيقه ليس فقط راضيا عن المقال ولكنه أظهر شبه انفعال عند سرد ملاحظاته وكأنه من عبدة البقر المقدس. ويومها عاد مهموما ومزق المقالة وهو يخزي نفسه، وأحس بأنه تقزم الى حد التفاهة.

وأحس وهو يسوي الصورة على المكتب أنه ما كان يحمل على أي أحد من رفاقه أية ضغينة.

في السنوات الأخيرة أحس بالوحشة وخاصة بعدما غزا الشيب رأسه، ولم يعد نهما في المطالعة كأيام شبابه الأول رغم عدم تفريطه في أي كتاب أو مجلة دخلت مكتبته، إذ كان محافظا فقط على مطالعة بعض الصحف المحلية انسياقا مع العادة ولكي يوهم الرفاق بأنه لا يزال كعادته، يطالبهم بين الحين والآخر بإعارته بعض الكتب التي يعلم جيدا أنها بحوزتهم، وإذا تسلمها منهم يضعها أمامه على المكتب ليعيدها اليهم بعد مدة دون أن يفتح ولو صفحة واحدة منها، فهو يجد على إبقاء صورته ناصعة كالعادة في نظر الآخرين.

كان يخفي همومه بطريقة تدعو إلى التعجب، فلا تلمس منه تذمرا أو شكوى، ولا يصارح أحدا بما يعتمل داخله.

هيء له بأن غرفة المكتبة تضيق به، صورة الأدباء والآثار الأدبية للعقاد وتولستوي وروسو العصاميين وكل حرف قرأه بهذه الكتب والمجلات أو لم يقرأه، فكل ما يحيط به يشير إليه بالعقم.

بعد أن تخطى النافذة أسرع الخطى لا يلوي على شيء، كل ما يهمه استنشاق هواء طلق وفك للخصار، لكنه كان نهبا لأحداث مضت وتساؤلات ووخز وضغط وجذب ورفع ودفع نحو شبه هاوية، ويتولاه خوف يمتص منه كل وقفة تأمل وتعقل.

كان - وهو يسير - يغمغم بعبارات تنطلق منه بلا وعي حتى إذا حاول كبثها وصلت مسمعه بعض الأحرف لا غير بينما ملامحه وأطرافه تقع في لخبطة الانطلاق والكبت فتتحرك عشوائيا، وهو يحس بكل ذلك فيزداد ارتبাকে ويلقي نظرة حوالية ليتحقق من أنه لم يشاهد وهو يرفس الأرض بقوة وترتفع يداه في غير هدف ويصر شفثيه دون داع.

قد يستطيع طرد كل الهواجس بعض الوقت، لكن شريط أحداث العقم ما يفتأ يحطم إرادته ليجعله متفرجا لا حول له

ولا قوة، لمشاهد لا يرغب فيها، وكأنه في حالة عذاب والشريط أداة عذابه. وبدا له أنه كلما هم بإنجاز ما في حياته برز عائق يحول دون تحقيقه، كان ذلك في عمله أو في حياته العائلية، قبل الزواج وبعده أو بين أصدقائه من هواة الأدب والصحافة، وما تذكر بالمرّة قضاء مآربه بسهولة وإنما يتخللها العائق تلو العائق حتى ليكاد ييأس، وكانت برودة دمه وطيبته هي وراء عدم تأثره المفرط بها، فازداد احساسه بأنه لم يكن طليقا بل مكبوتا لا حق له في تحقيق بعض الأهداف والوسائل كبقية الخلق.

وكان الهاتف هذه المرة يقصده مباشرة :

- أنت ملعون رغم فضيلتك أنت عقيم رغم عطائك، أنت مرفوض رغم نزاهتك واستقامتك، أنت متبوع معرقل رغم طيبتك وسماحتك وحبك للناس، ليس من حقد المطالبة بالانصاف فالعدل نسبي.

في البداية كانت الحركة عادية بالشارع الرئيسي ورغم أنه من عادته التوقف بأكشاك باعة الصحف كلما قطع هذه الطريق... لكن - يومها - كره هذه العادة ولقاء أي كان لمزاجه المتقلب الذي نفّره من كل شيء إلا السير دون توقف.

لم يعرف كيف ازدحم الشارع فجأة بالمارة، وانطلقت نداءات من هنا وهناك بشعارات تدعو الى الحرية وتندد بالظلم، وهرولت الحشود فجأة في الأنهج الفرعية وبقي السيد حسن مواصلا طريقه إلى حين اختطافه من طرف رجال مكافحة التظاهرات.

وعبثا حاول تبرئة نفسه من تهمة المشاركة في مظاهرة تندد بالسلطة، ولما أعيته الحيلة لازم الصمت، بعدها اقتنع بأن عملية إيقافه تندرج ضمن سلسلة المحن المتواصلة التي ليس في مقدوره إيقافها.

الناصر التومي

اللون الرمادي حول
الالة الصفراء. رجال
تحرك في لون الاسمنت
أحاطوا بآلة الباطون. هرعوا
يوم الأحد - منذ الصباح الباكر-
الى حضيرة البناء. خلية بشرية
لا تعرف طعما للراحة الاسبوعية،
طلعت عليهم الشمس واهنة
صفراء، صفعت وجوههم ريح

التفويض الحاجل

سموم. أنبوب مطاطي، طرفه مغطس بأحد البراميل سبع
براميل ملئت منذ البارحة ماء أكياس من الاسمنت وصفت
قرب آلة الخلط. أكوام من الرمل الأصفر غرقت في انتظار
إقامة السقف. بناء مازال ينتظر أموالا كثيرة.. أكداش من
الحصير الأزرق موضوعة قرب الرمل...

صاح رئيس الحضيرة صيحة أفزعّت الجماعة : هلموا ..
توكلوا على الله.

هَبْ شباب مفتول الذراعين وانحنى على الآلة الصفراء.
شدّ بقوة على مقبض التشغيل وأداره بسرعة عجيبة. طلق
المحرك وملا دخانه الداكن فضاء الحضيرة. دبّت الحركة
بالمكان. تقاطعت النقلات وتشابكت الرفوش بين الرمل
والحصي وجرى الماء غزيرا بمرجل آلة الخلط.

فوق الحضيرة انتصب قائد المرفاع. اعتلى منذ حين
كمتن الكركر الأصفر.. ذلك الطائر الحديدي الكبير. مسك

بالمقود وشرع يجرب آله. ذراعها تمتد أمامه طويلة لينزل
من طرفها سطل ويصعد إليها من أرضية الحضيرة سطل.

ستسجل الذراع نصف دورة في كل حركة وستتحرك
مئات المرات لرفع خليط الاسمنت الى سقف المبنى.

مسح قائد المرفاع بنظره أرضية الحضيرة. ساء حال
زملائه وهم يرتدون الاسمنت وينتعلون المطاط. منذ سنة
كان مثلهم يغوص في الوحل ويحرقه الاسمنت. حمد الله
وابتهج لأقدميته. قضى خمس سنوات بين الاسمنت والحصى
والرمل ثم انتقل الى تسيير آلة «الباطون» هاهو اليوم
ينعم بقيادة المرفاع ويعتلي عرش الحضيرة.. اشتعلت نار
العمل واختلطت أصوات العمال : هيا.. خذ.. اجر ... هات..
سطل ينزل وسطل يصعد ويذا عمار لا تتوقفان عن المقابض
وعيناه لا تغفلان الا إذا قابلهما ذلك الطريق.

سطل يصعد وسطل ينزل تسجل الذراع نصف الدورة
وتمتد نحو ذلك الطريق فيمتد بصر عمار ويتابع ذلك الخيط
المؤدي إلى جهته فيردد : متى أعود ؟

نزع عمار الى العاصمة منذ عشر سنوات هرب من
الأعمال الفلاحية بعد أن كان والده فلاحا. ارتى بأول حضيرة
بناء اعترضت سبيله ليوفر القوت لزوجته وأبنائه. دأب
على الغوص في الشغل ليعود إلى أهله كل ثلاثة أشهر.

سطل ينزل وسطل يصعد وذراع الآلة تمتد من جديد
نحو طريق قرية عمار. يمتد بصر عمار حتى الافق ويصل
فكره مسكنه. بل ينفذ حتى يلج كوخه الحقير الذي عجز عن
أن يحوله إلى مسكن محترم .. ظل يبني للناس وفشل في
بناء مسكن لأهله.

استقر فكره بذلك الريف النائي.. رأى زوجته تجلب
الماء من البئر القريبة لمسكنه. هل تذهب بمفردها كثيرا : أه
يا علجية.. حماك الله من الذئاب واستريني في عرضي. لن

يخذلني الله سبحانه.. ألم أظل مدى إقامتي بالعاصمة
محافظاً على حزامي رغم الفتن الكثيرة.

نزل بصر عمار إلى أرضية الحضيرة فرأى الافواه
تتحرك فنادى بصوت مسموع : هل لنا من فطور. أجابه
واحد من المكلفين بتسوية السقف : اليوم ليس كالبارحة..
صاحب المبنى دون الكرم.. ليس هناك خروف اليوم. فطورك
علبة حليب مع ربع خبزة.. بعد لحظات ارتفعت بين يدي عمار
كأس شاي أحمر جاء من أيدي العملة الذين لا يقدرّون على
النظر دون شاي.

سطل ينزل وسطل يصعد والسؤال يعاود حضوره مع
امتداد ذراع المرفاع : متى أعود ؟ يجيب عن السؤال : إذا
نجح خاله في «السيزيام» إن شاء الله. يجب ألا أعود له إلا
بدراجة ولو قديمة.. وعد الحر دين يجب أن أفي بوعدتي.

لم يصعد السطل ولم ينزل السطل !

لقد تعطل الصعود والنزول. الحبل الرابط للسطلين
اشتبك بهيكل المرفاع. قام عمار ليعدل الجعاز. رجلاه
ترتعثان ويداه تعالجان الحبل. فقد توازنه فزلت قدمه
وهوى. في نفس اللحظة كانت شاحنة مملوءة رملا تدخل
الحضيرة فسقط عمار وسط صندوقها بالضبط. أنزله العمال
على الأرض فبدأ سليما من كل أذى وظل يبتسم ويحمد الله.
أحاط به العملة مهللين مكبرين مستبشرين. كان المقاول على
مقربة يتحادث مع مهندس الاشغال فهرع إلى المكان وأخذ
يتجسس عمّاراً ويرجّه ويبتسم من قلبه. ثم اعتنقه وقبله.
دس بعد ذلك يده بجيبه وأخرج ورقة نقدية دفع بها إلى أحد
العمال وأمره باقتناء مشروبات تبركا بهذه المعجزة. لكنّ
عمّاراً أقسم بأغلظ الايمان أن يأتي هو بنفسه بالمشروبات
ومن ماله الخاص اعترافاً للعناية الالهية ولهذه الكرامة
المباركة. توجه فوراً إلى متجر مقابل يفصله طريق عام.

جرى عمّار يقطع الطريق دون النظر لا الى اليمين ولا الى الشمال. في نفس اللحظة كانت سيارة سوداء تعدو عبر الطريق.. تكاد تطير رفعت عمّارا عاليا وأسقطته على الاسفلت.

مبروك المناعي



1 - مدخل تمهيدى :

المفارقات العجيبة
والتقاء العناصر
المتباعدة بكلّ جمالية أن

من

الشجرة المحكمة :

تحرية وجدانية

لشجرة الروح

المنكسرة...!!!

تتداخل الأشياء وتعيش الذوبان
في زمن واحد، ذاك ما يبرز جلياً
في قصة «الشجرة المحكمة»
للأخت الكريمة ربيعة الفرشيشي
إذ إنها شرعت في كتابتها في

3-8-1991 والشجرة المعنوية بالذكر شجرة الخروب التي
تزهو ربيعاً بل هي لا تعرف الخريف إطلاقاً لأنها مخضرة
دوماً، والكاتبة تحمل رسماً من خلال اسمها لفصل الربيع،
فالقصة «ربيعية» روحاً وجسداً شكلاً ومضموناً رغم إصرار
صاحبها على مطر الخريف و«عرس الذئب» فلم لا يكون
«عرس الذئب» ربيعياً أيضاً ؟؟ ولماذا لا نقبر هذا العرس
أصلاً خاصة أننا نلاحظ ذوبان الجنس (مذكر ومؤنث) كلياً في
هذا الأثر الأدبي لأنّ البطل إنسان فحسب خاصة أن القصة
كتبت على لسان رجل بينما صاحبها امرأة !!! هنا تأكيد
على أن الأدب إنساني دوماً دون اعتبار جنس المبدع. فأين
الروح الإنسانية من شجرة الخروب ؟؟ وأين الإنسان من
المحكمة التي حلت محلها ؟؟؟.

2 - بين التمرکز الذاتي وبناء الشخصية :

من المتعارف عليه أنّ كلّ إنسان خلال السنوات الأولى
من عمره [الطفولة الثانية] يمرّ بفترة تسمى مرحلة التمرکز

«الذاتي» وفيها يحاول أن يعرف ذاته ويكتشفها كما أنه يبدأ في تفسير كل ما حوله إلا أن في بحثه هذا يركّز أساساً على بنيته الجسدية وأطروحاته الروحية الخاصة بالوجود ونوعية جنسه ومقارنته بالجنس المقابل علّه يدرك نوعية الاختلاف بينه وبين الآخرين، إلا أن كل هذه العناصر قد تبددت واضمحلت وكان البطل في قصة «الشجرة المحكمة» قد تجاوز هذه الفترة زمنياً لأنه كان يشعر بأنه مختلف عن أصحابه عند مشاركته إياهم في لعبة التماثيل بل ربّما كان يرى مرحلة طفولته فيهم رغم وجوده معهم : « أفكر أحيانا أنني لست كالجميع... ألعاب الأطفال لا تغريني... وعندما كنت صغيراً نادراً ما كنت أشاركهم البعض منها... (القصة) ». فهل كان يعتقد أنه قد استكمل بناء شخصيته والتي في حقيقة الأمر متكوّنة دوماً إذ إنها لا تعترف بالزمن؟! أم يكون قد تجاوز تلك الفترة نفسياً إذ إنه كان يريد أن يبقى دوماً حكماً سواء اختاروه أو فرض نفسه كحكم أحيانا ؟؟ لكن ما علاقة الحكم (البطل) بلعبة التماثيل ؟؟

3 - لغز التماثيل ومقدرة الحكم :

إن الألعاب تخضع عادة لقانون يتفق عليه المشاركون مسبقاً إلا أنه يمكن لهم تأويله أو التصرف فيه أحيانا ولكنّه يبقى شبه مقدس خلال فترة اللعب. كانت التماثيل سبعة يحكمها حكم بكل صرامة وتطبيق للقانون، لكن الحكم ذاته كثيراً ما يفقد شخصيته كحكم ليتقمص دور تمثال بعد أن يختار بنفسه من يعوضه من بين التماثيل السبعة كحكم، فالحكم إذن هو التمثال الثامن، وهنا يعود لطفولته برغبة ملحة وبكل تداعٍ جرّ إلا أنه يبقى يعيش التذبذب أحيانا خاصة أنه يشعر بلذّة السلطة والتحكّم والتسيير دوماً ممّا دفع أصحابه لتنصيبه حكماً دائماً، وكأنّهم استقروا نفسيتهم... أو تأكّدوا من أنه يعيش بينهم في زمن غير الزمن الذي يحيونه وبالتالي يكون قد وجد في وجود غير وجوده

الذي أراد أن يوجد فيه وكأنه اكتسب من الخبرة والتجربة ما يخوله لأن يكون حكما وحاكما في مملكة البراءة لأنه تجاوزها ليلج عالم البحث والتروّي في الزمن المفقود أو الزمن المهترئ !!!.

4 - دموع الأطفال ومراة الماضي :

لسائل أن يسأل نفسه : كيف يمكن أن تكون دموع الأطفال مراة للماضي ما علاقة الماضي بدموع الحاضر ؟؟؟. الإجابة عن مثل هذا التساؤل المشروع مرتسمة في قصة «الشجرة الحكمة» بكل اتقان وروعة فالتبادل الحسي موجود، والتقاطع العاطفي بارز، وأهات الاختناق تتأجج في عبرات البطل. إنه يرى نفسه طفلا وديعا يبكي دون أن يضمه أحد ويلطفه ثم يمرر كفيه ليحفظ دموعه. فلما تمسك أحد التماثيل بقانون اللعبة ورفض نداء أبيه عاقبه هذا الأخير واخترقت دموعه مقلتيه لتحفر أخاديد الألم على وجنتيه الساطعتين نورا وإشراقا للبراءة التي كثيرا ما نتمنى أن تعاودنا حتى نحيا بعض الحرمان الطفولي من الألعاب وماشابهها لأنها لذة عابرة سنترى مكانها عقد الحياة ومشاغلا ومشاغبا، فما أروع أن يرى الإنسان نفسه طفلا في عيون الأطفال لأنه يسمو دوما للبراءة وصدق الإحساس وأنسياب العاطفة في وجدانه الذي سيواجه شرخ الهموم التي قد تستبد به يوما فتقضم مضجعه وتغيّبه عن وجوده رغم وجوده !! وما معنى الحياة إذا انفصلت الروح عن الجسد رغم الشهييق والزفير ؟؟ لكن هل يمكن لمطر الخريف أن يمسح دموع الماضي ويسحق الذكريات الكليمة ؟؟؟.

5 - المطر المرأة :

هل توجد غرابة أكبر من أن ترفض المرأة عكس صورة الشخص الواقف أمامها ؟ وكيف تحجب دموع طفل الصورة المنعكسة على المرأة ؟؟ وأين الصورة الأخرى للإنسان إذا ما رأى صورته منعكسة على المرأة المثبتة أمامه ؟؟؟ أسئلة

متقاطعة لكنها متلازمة كتلازم المطر للبطل في هذه القصة خاصة أن له مع المطر حكايات كثيرة فهو رفيق الطفولة، والحلم الأبدى، والصديق الحميم، والمعانق عند الوحدة، ورمز الذوبان الكلي والانصهار في كل ما هو جميل ورائع وسحري. إنه النفس الشعري والشاعري لدى الإنسان، وهو روح الحياة للأرض العطشى القاحلة، وآية للخلق والإبداع. فهذا التبادل الوجداني بين البطل (الإنسان) والمطر يحول كل قبيح جميلا وكل منفّر جذّابا. إنه الجمال في عالم التيه والهروب والفوضى والغربة وتشّتت الأحاسيس، فالمطر يزيل كل المساحيق الملطّخة على قممات وجوه من أرادوا تقمّص أدوار الزيف والخداع والتستّر على الحقائق التي أشتّت لنا لامست خيوط المطر وجوهم التي افتقدت مميّزاتها الطبيعية واختفت الصور المشوهة ليسطع نور دموع البراءة التي لن تنجلي أبدا ونحيا الذكريات الجميلة وتعشش في أعماقنا البراءة ونتملّق بالأمل ونتشبّث بالحياة الطموحة أكثر فأكثر ونحن نسير تحت المطر رافعين أيدينا للسّماء علّها تمطر وحيا وحبّا قد لا يأتيان يوما أو يحكم علينا بانتظار ربيع مشرق يحترق فيه المطر أشعة الشمس ليبلّل ما جفّ من الأزهار التي ما زالت كائنة فينا ولن نتحرر أبدا رغم اختيارنا للغة الصمت عند محاورة المطر المتيمّ بعشقنا، الذائب فينا كما عشنا ونحيا وسنحيا الذوبان فيه إلى الأبد، إنها الثلاثية المقدّسة بين الإنسان والأرض والمطر المنصهرة في علاقة أحادية الجانب غير انعكاسية بين المطر المخترق دوما أحاسيسنا واختيارنا الصمت لروعة ما استبدّ بنا من جمال كثيرا ما نراه مرتسما في الأفاق، لكن لم الهروب من المطر ٩٩٩.

6 - احتراق رغم المطر :

كثيرا ما يحيا الإنسان الهروب شعوريا أو لا شعوريا ولكن هروبه من المطر وبحته عن مكان للاحتماء به لا يدلّ

على الخوف وإنما يدلّ على علاقته بالجمال، فهو يريد أن يرى
الجمال عن بعد دون أن يحياه مادياً، وهذه العلاقة المتقاطعة
بين قانوني التجاذب والتنافر إنما تدلّ على شدة التعلّق
بالشيء، وهذا الشيء هو الجمال لا غير. والبطل هنا هرب
من المطر ليتأمّل فيه وهو محتّم تحت إحدى الواجهات ونفث
دخاناً من سيجارته ليلتصق ببُلوّ الواجهة علّه يرى صورته
مرتسمة بدخان احتراقه لأن دخان السجّارة عبر صدره
واقتنص أحاسيسه ليلقيها على بلوّر الواجهة بكلّ قسوة
محاوياً أن يرى أعماقه تتحوّل إلى بخار يتحوّل إلى قطرات
من ماء ملطّخ ينساب متقاطعا ليرسم صورة ما على البلوّر
لتتأمّله البائعة ثمّ تزيله بخرقّة مبلّلة بماء معطر ربّما !!
لكنّ الرّسم الأجمل كان مرتسماً في معلّقة إشهارية انتصبت
شامخة وبارزة بكلّ أنفة على الرّصيف المقابل اختلطت فيها
الألوان وتمازجت الأبعاد وتقاطعت الظلال والرذاذ ينهمر بكلّ
لطف وكأنّه يغري المارة ومن احتمى خوفاً من غضب المطر
ليخرج من صفته ويتأمّل الجمال. ذاك ما فعله البطل عندما
قطع الطريق كما تقاطعت الأحاسيس في داخله مصوباً نحو
اللّوحة متأمّلاً ومحدّقاً فيها وكأنّه يبحث عن شيء افتقده أو
هرب منه ففقد توازنه دون أن يسقط ولم يحوّل بصره إلى
مكان آخر إلّا لما لح طفل قد أفلت من قبضة أمّه وهو ينظر
إلى فوق يحاور الرذاذ الذي أغرى كلّ المارة، حينها رأى
نفسه من جديد في عينيهِ المشرقتين أملاً وطموحاً وعشقاً
للجمال والنقاوة والصفاء رغم أن ذلك اليوم كان يذكرّه
بعرس الذئب الذي لم يتزوّج إطلاقاً بأمر من الطبيعة التي
استولت على الوجود في تلك اللّحظة الهاربة من الزمن
المفقود في ذاكرة البطل السّاكن في الماضي دوماً والهابط
من الحاضر أحياناً !!!

7 - عرس الذئب وخربشات على التراب :

لماذا يبقى عرس الذئب في الذاكرة ؟؟ ولماذا تصعد تلك
الصورة الرائعة أمام رياح التّشويه المستبدّة بأحاسيسنا ؟؟

ولماذا نسمي تقاطع المطر مع إشراقة الشمس بعرس الذئب ولا نكنيها بعرس الغزال رمز الحرية والوداعة والجمال مثلاً؟؟؟. قد لا نجد إجابة شافية عن مثل هذه التساؤلات المبهمة ولكن الكاتبة ومن خلالها البطل حاول تفسير هذا اللغز المعقد، فاختلاط الصور يؤدي لتكوين صورة وحيدة جميلة وهي صورة الأم التي كثيراً ما تؤول لتصبح صورة ذئب أو رجل، إنها قضية معقدة تمتزج فيها الخلفية مع الصورة في أن واحد. فما أن يمسك البطل (الإنسان) بغصن ويخربش على الأرض خطوطاً ودوائر حتى تختلط الصور في الذاكرة فحيناً نرى الأم صورة والذئب خلفية وأحياناً نرى عكس ذلك وطوراً تنتفي الصورتان تماماً لنرى يداً كبيرة غليظة رمزا للقسوة والغلظة تكون الصورة والخلفية في نفس الوقت. إنها تعرية وجدانية لروح منكسرة تبقى جروحها عميقة في الوجدان رغم أن الماء يمسح ما رسم على الأرض في صورة متداخلة لكن الرسوم التي رسمت بدم القلب المتقاطر الما تبقى وفيه للأحاسيس التي كلمت واستوصلت منا بكل قسوة، ألا أن البطل (الإنسان) تستبد به الرغبة في إعادة الرسم رغم إدراكه خطر المياه الجارفة. إنها الرغبة في تجاوز المستحيل ولو أدت هذه الرغبة الجائعة للإختناق بما بقي فيه من أحاسيس وأنفاس متقطعة لأن الماء لن يجرف الذكريات المتأصلة فينا والمنحوتة في ذاكرتنا والمحفورة في وجداننا !!!.

8 - حين تصبح السيجارة شجرة الروح :

عند إشعال السيجارة الأولى لم يدع البطل دخانها يخترق وجدانه وأعماقه بكل حرية إذ سرعان ما نفثه على بلور الواجهة، ولكنه لما أشعل سيجارته الأخيرة أفلتت منه حرية التسلط وفقد دور الحكم مما جعل دخان هذه الأخيرة يحتل مكاناً من صدره ويتكور ويتشكل حتى أصبح شجرة أزلية نبتت في الأعماق واستوت واقفة دون انحناء : إنها

شجرة الرُّوح والأعماق. فما أروع أن تصبح المادّة روحاً والرُّوح مادّة، فالدخان صار مادّة مثمرة ومخضرة والروح صارت منبتاً للمادّة وهي الشّجرة، وأي شجرة ؟؟ إنّها شجرة الخروب التي اقتلعت لتقام على أنقاضها المتبقية محكمة بالقربة، فرغم أنّ هذه الشّجرة مخضرة دوماً، صامدة دائماً، صبورة إلى حدّ الغناء فقد عبثت بها أيادي العبث كما تعبث أنامل الزمن بأحاسيسنا وعواطفنا وذكرياتنا الجميلة، لكنّ المطر يطهر القربة من أدرانها ودناستها ليبعث فيها الحياة من جديد ويضفي عليها مسحة من الجمال الأبدى، لكنّ الجمال نفسه يختنق باختناق الشجرة التي خنقوها بحوض صغير ثمّ اجتثوها من مكانها وكأنّ الحرية المقننة لم تشف غليلهم فقاوم البطل حتّى افتقد أصابعه فاستوصلت الروح من شجرة الخروب رغم دفاعها عن ذاتها ووجودها بكلّ اعتزاز. إنّ الصّراع بين الحياة والموت وبين الخير والشرّ، ويذوب البطل (الإنسان) في روح الشّجرة وتذوب الشجرة فيه لتنبث إلى الأبد بين ضلوعه في أعماقه وبين خلجات قلبه لا كذكرى طفولية وإنّما من تنه ومراوحة وخروج من عالم الذكريات إلى عالم الواقع وذوبان كلي بل انصهار وتعرية وجدانية لشجرة الروح المنكسرة الهاربة من الزمن الحاضر إلى الزمن الضائع في الماضي المتعلّقة بالزمن الآتي. فلعلّ الشجرة تزهر وتثمر من جديد كلّما ترقّرت دموع البراءة في أحداق الأطفال وبللّ المطر أرض الوجدان العطشى من شدّة الحرّ الذي تأجّج في كيان كلّ من يحيا في وجود غريب عن وجوده رغم وجوده في وجوده حتّى لا تموت الأعماق بداخله وبالتالي في داخل كلّ منّا ولتبقى شجرة الرُّوح مخضرة فينا دوماً رغم رياح الخريف العاتية والرّبيع مزهراً إلى الأبد !!!

محمد كمال السخيري

لعيبي فائزة «ساغني
لكل فرح قصيدا ساجعل
للبسة نشيدا حتى

الأهداء

يعود الصنيد حديدا
عندما كنّا صفارا، كنّا
نهرب من الطريق الاسفلتية الى
دروب الرمل المتناثرة وراء
حيننا... وكنا نقسم أنفسنا الى
مجموعتين لنلعب لعبة الحرب
الخطرة كل يوم أحد...

الحروب الصغيرة

الآن - في هذا العمر - أذكر كامل أفراد مجموعتي فردا
فردا لكن بنسب متفاوتة.. رشيد هو الوحيد الذي أذكر حتى
أبسط قسعات وجهه.. كان نحيفا، شاحبا، وكانت له القدرة
على التميز داخل المجموعة فقد كان الرأس المدبر وكانت
مخططاته بعيدة عن أذهاننا الصغيرة فعندما كنّا نجلس على
ضفة الساقية كان غصنا من شجرة التين العجوز. وكان
يفسر لنا خطته للغزوة المقبلة.. كان يرسم أشياء وأماكن
وسهاما وكنا نضيع إذا حاولنا فهم ما يقوله وما يرسمه في
نفس الوقت... أنا، فهمت بعد ذلك بسنين أن الرسوم
المحفورة على التراب الندي لم تكن سوى خرائط حربية
طفولية.. ومع كثرة حروبنا الصغيرة بدأنا نفهم معنى
التخطيط ونفقه معاني النصر والام الهزيمة..

وكان أصحاب المزارع يطاردوننا عند ممارستنا للعبتنا
العنيفة لأننا كثيرا ما كنّا نكسر أعواد الحنّاء الرقيقة ونقلع
- أثناء غاراتنا - كل ما حطت عليه أيدينا الصغيرة وسهل

تقليعه... كنّا نفرح لمراى حبّات الطّماطم والفلفل تتهاوى الى الأرض لتستقرّ تحت أقدامنا فقد كان ذلك يضفي على المكان صفة الدّمار في ساحات المعارك الحقيقيّة...

هروبنا من أصحاب المزارع كان يدخل بعض الارتباك على لعبتنا - لأن الحرب عادة ما تستوجب جيشين متقابلين فقط - لكنّ ذلك كان يدخل البهجة في نفوسنا لأن الهرب والجري يتخذان حينذاك طابع الخطر الجديّ. وكثيرا ما كان أحدهما يسقط في قبضة أحد الفلاحين. وكان أبشع عقاب يمكن أن يسلّط عليه متمثلا في كسر قرن فلفل وتمريه على شفّتيه التّين لم تدنّسهما السّجائر ولا الكلام البذيء حتّى ذلك الحين..

أنا ورشيد لم نقع ولو مرّة واحدة بين أيدي أصحاب المزارع.. كان لنا مخبؤنا الذي سرعان ما كنّا نلتحق به في أثناء المطاردة.. كوخ صغير من الجريد وجذوع النّخل.. كانت رائحة الياسمين تختلط فيه برائحة العرق الرّطبة واللّزجة.. أمّا الذي كان يؤمن لنا الحماية فهو «الطيب» الفلاح الأجير بتلك المزرعة..

علاقتنا به في الأوّل انطلقت مشوبة بالحرّ اذ كنّا نخاف وشايته بنا. لكنّ هذه الهواجس سرّيعا ما تبدّلت ليحلّ محلّها الاطمئنان ثمّ الاحترام فالحبّ الطفولي البرئ.. كنّا نشعر بتواطئه معنا في معاركنا الاسبوعية. وكان ينظر الى وجوهنا المعفّرة بالتّراب والعرق فيبتسم ثمّ يهزّ كتفيه ليتركنا داخل الكوخ ويواصل عمله تحت الشمس الحارقة..

ومع الايّام بدأت علاقتنا به شيئا فشيئا تتجاوز الابتسام وهزّ الكتف والشّعور بالتواطئ الى التّواصل بالكلام... أذكر المرّة الأولى التي حدّثنا فيها.. كان جالسا على جذع نخلة قلعه بالأمس. وكنّا ننظر إليه مشدوهين بكثافة شاربه متمنّين أن ينبت لنا مثله.. قال لنا : أنّه يجب علينا

الرجوع الى منازلنا لأنّ لديه ما يعمل.. وأذكر أنّه قال لنا وقتها : « لديكم حروبكم الصغيرة لكنّ الحروب الكبيرة آتية لا محالة.. » ثم أعطانا بعض الثمار وهو يربّت على أكتافنا..

وبدأنا نكبر وبدأ خيالنا ينفّث على مجالات أرحب لكنّها أبعد على الحزن، وأصبحنا نفهم كلام الطيب أو على الأقل بعضه. لكن على طريقتنا.. وبدأت المسافات تتفتّح لنتجاوز حدود حيّنا والحقول من حوله الى المدرسة.. رشيد وأنا كنّا نحبّ المدرسة لكنّنا نترقب يوم الأحد والعطل لنجالس الطيب الذي أدمنّا حديثه..

ومرّت بعض السنين كمرور معاركنا الخاطفة وكنا نشعر بالمرارة لأن الطيب كثيرا ما كان يطردنا - في لين طبعا - لأسباب نجهلها إذ لم يفسّر لنا ذلك باستثناء مرّة واحدة شرح لنا ذلك فيها باختزال شديد فقد قال لنا : إنّ هناك رجالا غرباء شديدي البياض يريدون اشتراء الأرض من صاحبها الذي وافق.. ولما رفض الطيب الخروج بدأ هؤلاء في تهديده، ولما سألناه : أين هم حتى نضربهم بالنبال قال : إنّهم لا يأتون إلّا في الليل على وقع نغيق البوم، أو في مرآت قليلة أثناء النهار متنكرين في لباس عربي تقليدي ولحي كثة مصنوعة من جلد خروف مصاب بالذبابة اللولبية.

كانت تلك آخر مرّة نرى فيها وجه الطيب إذ لم تمض بعض الأيام حتّى تناقل الناس خبر اختفائه أو هربه.. في ذلك الربيع فقد الحيّ والبساتين والمدرسة معانيم لدينا..

ولقد تزامن حدث اختفاء الطيب مع أشياء غريبة هزّت استقرار الحيّ.. من ذلك أذكر أنّ أنفي الصغير - وقتها - لم يعد يحتمل تلك الروائح الكريهة التي عمّت الطرقات لتجثم على سطوح المنازل والأكواخ.. لقد كره الناس الخروج من منازلهم إذ فرضت عليهم تلك الرائحة الكريهة اغلاق النوافذ واسدال الستائر المصنوعة من أكياس القمح اللين.. ولقد

أصيب الحي بالارق أيضا بسبب الصّراصير التي كانت كلّما نزل اللّيل وغلّف المنازل البيضاء بلونه الكحلي تطلق صرصرتها فكانّها تنذب فقيدا او تنوح...

عندما وصلت الأمور الى هذا الحدّ قرّرنا ايقاف حروبنا الصّغيرة. ولقد همس رشيد في أذني : من الواجب علينا قتل الصّراصير واكتشاف سرّ الروائح الكريهة التي تحوّلت الى شيء مألوف لدى أهلنا..

بدأت حملتنا لتنظيف الحيّ من الصّراصير وكنا نقتل منها ألّوفا يوميا لكن قدرتها على التوالد كانت أقوى من قدرتنا على إبادةها.. وشيئا فشيئا بدأنا نفقد الأمل في القضاء على هذه الحشرات المريبة فحوّلنا وجهتنا الى البحث عن مصادر الرائحة الكريهة..

هذه المرّة لم يطل بحثنا فقد خصّصنا له نهاية الاسبوع كاملة.. ظللنا نتتبّع الرائحة ككلاب الصّيد. وعند الغروب، توقفنا عند أحد الابار الجافة المنتشرة هنا وهناك على حدود الحي.. كانت الرائحة لا تطاق ممّا جعلنا شبه متاكدين من أنّ مصدرها كان تلك البئر بالذات.. فكرنا طويلا فيما يمكن أن نفعله. وقرّرنا أخيرا أن ندعو معنا كلّ أصدقائنا في اليوم الموالي إثر حصّة الدّروس المسائية..

في الموعد كنّا قرابة العشرين طفلا، وكانت الحروب الصغيرة قد عودتنا على استعمال الحبال وغيرها.

لقد صنع رشيد - قبل أن يأتي - أنشوطتين من الحبال التي كانت تجدها أمّه لتبيعها كل يوم أحد في السّوق... وكنا - فيما هو يهيء الحبال - نتراهن على نوعية الجثة، وقد اتّفق أغلبنا على أنّها لكلب خبيث رماه صاحبه هناك حتّى مات وتعفن..

بدأت المحاولات الأولى لاحاطة الجسم المغلّف بالظلام والغموض بالانشوطة.. وكانت فاشلة.. وكنا نكرّر التّجربة

دون ملل ولا كلل رغم الرأحة التي تثقب الرئة..

وأخيرا أحسنا بثقل الحبل.. كان ذلك يعني أن المرحلة الأولى من العملية كللت بالنجاح، بقيت الخطوة الثانية وكانت أصعب بكثير.. الجئة كانت ثقيلة جداً لكننا وبعد محاولات عديدة تمكنا من سحبها وذلك بفضل تعاوننا كلنا في شد الحبل..

كان أول ما أطلعنا رأس بشري.. أجفلنا.. وسقطت الجئة من جديد.. سحبنا وسحبنا.. وكان الجسد.. تعفنت بعض أجزائه لكن الوجه رغم التشويه ظلّ واضحاً.. كان أليفاً.. كان مبتسماً.. أجهشت بالبكاء وكذلك الآخرون.. لقد بدأت المعركة الكبرى وبدايتها مكافحة الصراخ...

ظافر ناجي



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كان

الجو خانقا... وكانوا
يتحركون حركة الموت..
الأجساد استحالت إلى
ينابيع من العرق.. كانت المعاول
ترتفع وتنزل... ترتفع وتنزل في
صمت وإجهاد. وفي جهة أخرى
كان طنين المطارق يختلط برنين
الملاعق. والعمارة الاولى تعلو
وترتفع في شموخ.

الخبز والإسمنت

- يا الله يا طاهر خدّم الخلاطه، وحضّر السيمان !
البناية تمدّ أذرعها نحو السماء بسرعة عجيبة. وعرقنا
يمتزج بذرات التراب. وغبار الاسمنت، والأجر. وهذا رئيس
الحظيرة يتبختر بيننا مثل الديك.

- ديمة راقدين في الخدمة.. أنا نصبّ نسلمّ المفاتيح.
وتظلّ المعاول في الجهة الغربية للعمارة في حركة
دائمة. وعم صالح، وإبراهيم يعرفان في الماء والطين،
وثيابهما ملطخة بالوحل.

- علاش تخمّم يا عثمان... يالله اخدم !
وأعود إلى عالمي.. أضع لبنات جدران الطابق السابع،
وأنا أغنيّ لنفسي :

«عديتْ عُمري في الحَبوطِ نَعْلِي * وَخَلَيْتْ حِيطِي قَصِيرُ ما عَلَيَّتُهُ» (1)
يدير الطاهر محرك الآلة الرافعة، فيأخذ السطل في

الارتفاع.. وأحدق في السطل :

«بابا العيد جاء ، وما عنديش صباط!»

يرتفع السطل ... يرتفع.

- يالله يا عثمان !! يا الله !!

يرتفع السطل ... يرتفع ... طموحاتي مريضة ...
خاسرة ... أحدق في الفراغ بنظرات فارغة.

- حق الكراء موش خالص يا عثمان.

يرتفع السطل .. يرتفع ...

عيوني تشقق م الكربيلة لوقتاش نترقب في الضو؟!

لكم تمنيت في طفولتي أن أكون بناء.. نجارا.. حدادا..
حراثا.. وما هي رغبتني تتحقق هاأنذا أصبح بناء.. أتنفس
غبار الاسمنت وصلابة الحجارة. أعيش حياتي لاهثا وراء
الخبزة، والخبزة تزور يميننا وشمالا.. أنا فقير أعرف ذلك..
ولكن ما ذنبي ما دمت ولدت فقيرا، وسأبقى حتما فقيرا ؟!

وما ذنبي أيضا أن كانت هذه الخبزة التي ما إن أقضعتها
بعد تعب.. وجوع.. وألم، وعرق حتى استشعر صلابتها.. فإذا
هي ليست من خبز القمح اللين ولا من خبز الشعير الذي
اعتدته. ولكنها حجر، وطين، وشجن.

يرتفع السطل ... يرتفع... يصبح في مستوى الطابق
الثاني، أحدق في السطل كل ما أملك أجرة يومية لا تسد
الرّمق.. طفل سميته نضالا، عوّضت فيه بعض طموحات
شبابي.. وزوجة تمنع الحب، والجنس، والدنق.. والأمان،
وبعض الطموحات الخاسرة.. أحدق أكثر في السطل ولكن أي
فجر انتظره أنا الانسان الفاشل المدمر الاحساس..

- عَلَيَّش الحيط يا عثمان ؟

وجهي لم يعد يضحك.. العرق يتوالد فوق جسمي لحظة

بعد لحظة.. وأنا أزفر هواء ملوثًا صحت من حزن الذكريات
على صوت عم أحمد يناديني.. مشيت إليه.. حدثت في
عينيه.. حدث في عيني

- أنا حزين يا عثمان

- الحزن خبزنا

ويرتفع السطل .. يرتفع

وأنا مثل الة حرة.. صدمت محركاتها.. في الليل أحلم
في إنقاذ نفسي، وفي الصباح أتسائل : كيف تراني أنقذ هذه
الآلة المعطوبة ؟

لقد تمكّن في نفسي شعور قويّ بأنه قدر لي أن أكون
هذا الانسان المحكوم عليه بالموت المجاني. في ركن من
الحضيرة كان يوسف يقبع وحيداً.. بيده الخطاب الذي سلّمه
له كاتب الحضيرة منذ قليل.. خطاب مختصر.. به كلمات
قليلة ولكنها حاسمة.

«لقد تقرر فصل العامل يوسف المزيان عن العمل لسوء
سلوكه، وتحريضه للعمال» ولكن يوسف لم يحرّض أحداً..
لقد أضربنا بمحض إرادتنا.

يرتفع السطل أكثر.. يصبح في الطابق الثالث.. يزداد
طعم الميوعة والغثيان.. أفكر في حصر ذهني في شيء
معين.. درجة الحرارة في ارتفاع... كانت حصن الأمان
بالنسبة لي... أحببتها حتى تقطعت أوردتي. أتخيلها الآن
أمام القرن، وجسدها القويّ يلهبه الحر اللافح، وينصب منه
العرق مختلطاً برائحة البصل الطّازج. والخبز الأسود
المعجون بالدموع، يرتفع السطل... يرتفع... تطن المطارق،
ورئيس الحضيرة في ركن يدخن في لذّة، ويثرثر مع أحد
العمال.

داهمتني رغبة ملحة أن أعود طفلاً وأصنع حياتي من

جديد.. طردتها من ذهني...

يرتفع السطل.. يرتفع.. يصبح في مستوى الطابق الرابع.

من كان يصدّق، يا عثمان، أنّك تغدو بناء... نختلط نظرياتك والمعادلات التي درستها بغبار الاسمنت، وذرات التراب، فوالدك كان يريدك محاميا ناجحا ليتباهى بك أمام أعيان القرية، وليقول لهم :
« الفقر نور! »

تزوبعت في نفسك رغبة في البكاء.. كتبتها.

يواصل السطل ارتفاعه.. يصبح في مستوى الطابق الخامس وأظّل مبحرا الى الماضي بذاكرة أتعبتها أيام الغياب القاتل، وهموم الحياة تتشابك حولي... تلفّني والزمان غول له ألف قدم.

- فدّت .. اللّي يجيبو النهار يدّيه اللّيل.. نخدم كل يوم ، وفي آخر النهار تتسجل لي ساعات العمل في « الفيشة » .
وفي آخر كلّ أسبوع يجي الخلاص يعطيني تقليعة للمصروف، وفي آخر الشهر تطلع الحسبة ع الفاضي.

- اصبر قال عم أحمد

- لوقتاش ؟

- حتى يفرّج ربّي

تنتابني فرحة مفاجئة... أكاد أعلن لصاحب العمارة أنّني وجدت كلمة من مقطع... أتردد، فذلك لا يجوز، إنّه يحقّقر ثقافتني وينظر لي ربما بسخرية... وربما برثاء !

رئيس العمل على وجهه ابتسامة خبيثة.

يدي تمتد بالابهام المتورمة، والأصابع الأخرى المصبوغة بالاسمنت تضغط على المطرقة، وهي تدفع «الزنزير» في

إصرار ليشقّ لنفسه طريقا في الجدار.. ذرات التراب تدخل
في عيني تسيل الدموع.. في بيتي مثل هذا الغبار، ولون
الجدران ترابي.. باهت. والصفرة تكسو وجه النافذة
اليتيمة... والأئين في صرير الباب لا ينتهي.

يرتفع السطل... يرتفع... يصبح في مستوى الطابق
السادس.

العمارة توشك على الاكتمال، والعمال السمر نختلط
إيقاعاتهم تملؤني فخرا وأملا.. أحس أكثر من أي وقت مضى
بحاجة الملايين إليّ أنا الفرد المعزول.. يتسع العالم لي..
أتجاوز أحزاني.. تنطبع صورة هذه الخلية بخيوط نارية على
صدري مشبعة بروائح الزيتون وسيول العرق.. تتناول
قامتي... تتحدّى الاملاق والعجز.. تعانق الأفق.

وأفقت من اغمائي... تساءلت!

«أين أنا ؟»

حاولت أن أتحرّك.. كان جسمي مغلفا بطبقة سميكة من
الجبس.. أحسست بالهلع حاولت أن أتذكّر كلّ الذي حدث..
قطعت عليّ الممرضة تصوراتي.

- ها ... كيف حالك الآن ؟

كنت متعبا.. برأسي دوار غريب.. تعمّنت بكلام مبهم.

- قالوا : إن سطل الاسمنت دفعك من الطابق السابع !

- ماذا حدث ؟ أوجرت ؟

- كسر في اليد اليمنى. وفي سلسلة الظهر.

شرقت بدموعي.. دخلت في نوبة هذيان.

كانوا يجتمعون حول كسرة خبز جافة.. يغمسون فيها
السماء الملتهبة مع «الهريسة» المعجونة بالآلم، وحبّات
العرق الساخنة ولكنني في غرفتي أرتعد.. أفرز شيئا مالحا

مرآ.. أتخيلهم وهم يعملون بعنف حتى الموت ينتجون
الحياة... تعتريني حمى عنيفة ... يغلي جسدي أراهم..
عيونهم مفتوحة.. بيضاء يشوبها شيء من الاحمرار..
وجوههم سمراء بلون الحزن يلهثون في إيقاع واحد منتظم
يتحركون في إجهاد.. تصلني أصواتهم فتهزني بعنف..
أتناسى ألمي.. أناديهم بصوت مجروح : أن يزوعوا فؤوسهم
في قلب الشمس الملهب حتى يقهروا الاخفاق والشقاء.

حينما أفقت في صبيحة اليوم الثالث كانت الذراع قد
بترت تماما. وبهذه الصورة التقيت بطفلي نضال وزوجتي
أمال عند مدخل الدار. وحينما تهاوت من المفاجأة عند قدمي
بقيت ساكتا، أنتظر أن تنهض لتساعدني على تمضية بقية
العمر في صبر وقناعة.

المختار المؤمني



ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

(*) هذا البيت مقتبس عن بيت الشاعر صلاح ساسي
«عديت عمري في الكفوف نحني
وخلّيت كفي غريب ما حنيت»

الفهرس

العدد 95 (جانفم - مارس 1992)

المجلد الرابع والعشرون

ص

- تصدير..... قصص 3
- الحريق..... بنت البحر (حفيظة قارة بيبان)..... 5
- العذراء والقربان..... محمد الخموسي الحناشي..... 12
- ضاربة الودع..... علي مصطفى المصراتي..... 18
- حوار مع جمال القيطاني.. بوراوي عجيبة 37
- الغد الأخضر..... ربيعة الفرهيبي..... 56
- العرس..... روضة الشتيوي..... 62
- البحث عن الخلاص (2)..... مصطفى الشريف..... 68
- العقم..... الناصر التومي..... 88
- التنفيذ العاجل..... مبروك المناعي..... 98
- الشجرة المحكمة..... محمد كمال السخيري..... 102
- الحروب الصغيرة..... ظافر ناجي..... 110
- الخبز والاسمنت..... المختار المومني..... 114